حميدة نعنع



دار الآداب

الوطن في العينين

الوطن في العينين

إهداء ٢٠١٠

المرحوم / محمد بن على الدعفس

المملكة العربية السعودية

حميدة نعنع

الوطن في العينين

رواية

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الثانية
١٩٨٦

تعرفين انه زمن الحرب .

زمن الموت والحرائق والاوطان البعيدة . زمن التشرد على ارصفة المنفى ... في وجوه المدن الغريبة التي يغسل الضباب وجهها بينما الوطن بعيد . لم يعد بينك وبين الارض الا الغربة ، كلاكما يحدق بوجه صاحبه ، بينما تموت في داخلك كل يوم امراة ويستيقظ في دمك كل يوم طفل .

تعرفين انه زمن الحرب .

الزمن هو الزمن والحرب هي الحرب . يردك الليل الى الواقع المر ، فتحاولين الانتحار بالركض على أرصفة الوحدة ، تسمعين صوتك يغادر حنجرتك الى الفضاء فيرتد اليك عقيما . لقد توقف الحبر عن ان يجذبك ، والصفحات البيضاء لم يعد لها البريق الذي كان يسحـــرك ويخدر في داخلك الرغبة بالبوح .

الى أيـــن ؟

ان المدينة التي تعودت المرور بها ، وانت تحملين في راسك الحلم الكبير بالعودة ، قد اصبحت سجنا كبيرا ، واشجار الزيزفون البرية تنغرز في صدر فجيعتك ثم تختفي تحت وطأة الريح .

لماذا لا يقف الليل عن الثرثرة ؟

لماذا لا ينتحر في ظلمته ويريحك ؟

منذ متى وانت تعشقين أرصفة المقاهي ... وجوه الغرباء ... الدم الذي يغسل ارصفة المنفى ... الخيبة التي تردك الى اعماقك بقهر ... هناك تحاولين ان تعودي امـــراة .

اعرف انه زمن الحرب .

ولكنني اعرف أنه زمن الولادة ايضـا ، زمن الشجر الذي التقيته في البلاد البحرية الحارة ، الشجر الذي يلقي بأغصانه الى جسده فتموت في جسده الوحدة ، ثم تموت الاغصان عندما تلتقي بأمها .

قادمة من بلاد كل شيء فيها يولد وكـــل شيء فيها يموت في ولادته ، كل شيء يعيش في موته . قادمة من أرض تمطر السماء ترابها مئة يوم وتمتص شمس السماء مياه الارض في المئات الاخرى .

مَن هناك حيث ما تزال الحرب تزهر على منابـــع الانهـــار .

أعرف أنه زمن الحرب

لكنني اعرف انه زمن الهزائم والخيبات والتنازلات . زمن الاسئلة التي تمزق حنجرتي وترتد الى العمـــق دون اجابات .

انه زمن الخوف والانتظار .

باريس ١٩٧٧

اركض اليك والامطار تلفح وجهي ودمي . أرى الثلج يتنزه في وجه الجسور التي تربط « جزيرة سيتي » بالمدينة

العجوز ... اشد عباءتي المغربية الى جسدي وانغرز في صدر العتمة . وعلى احد الشاليهات المطلة على النهر ، الحك تحت ضوء المصباح الذي يلفه الضباب بدوائر دخانية اشبه بموسيقى غجرية آتية من وديان الفرح ... اقترب منـــك .

ــ لقد تأخرت . كلما هممت بمغادرة مكتبى ، فاجأني المدير بعمل له طابع الاستعجال . لقد افهمته اكثر من مرة ان الساعة السادسة تعني بالنسبة لي الحرية وارتباطات اخـــرى .

واضيف ضاحكة : ــ عربي ، ومن الصعب ان يدرك قيمة الزمـــن !

تجيبني ضاحكا :

ــ هذا خير لكم ، ماذا فعلنا بالزمن ــ ماذا فعــل بنا الزمن ؟ اشعلنا ثلاث حروب عالمية ... وحرائق كثيرة في بقاع الأرض .

وتمد يدك الى شعري المبلل بالمطر ... تمســح راسـي ... تحني عنقــي اليك محاولا حمايتــي بمعطفك الجلدي ... نسير باتجاه ساحة « دوفين » . اتوقف على رصيف « ديزورفيفر » ، مقابل قصر العدالة ، وارفع عيني اليك . يمنعني المطر من اختراق الظلمة . يبدو لي وجهك خلف المطر والريح كوجه ربان سفينة امضى رحلة طويلة دون ان يقف في مرفأ ... اقول لك :

ــ حربان عالميتان ونحـــن نعيش صراعا لــن يؤدي الا الى اليأس . ليتها تشتعل مرة اخرى لنتمكن من تحديد مواقعنـــا !

الح الغضب على جبينك ... تمر تعابير كثيرة على

محياك عجزت دائما عن فهم معناها . تنحني علي قليلا ... تحاول أن تربت على كتفي :

ــ كفي عن حماقاتك وأمانيك المجنونة !

اتكلم عن الحرب واتجه الى ماضيك ، اتكلم عن وطني واتجه الى ماضي ... الى حاضري !. ارى خرائط العالم العربي وقد تغيرت اشكالها . ضاقت مدن واتسعت اخرى ، سميت أراض بغير اسمائها ، وحتى البطاقات الشخصية اتخذت لها الوانا أخرى .

في مدخل البناء حيث تسكن ، ننظر معا ، وفي وقت واحد ، الى وجه الطباخ الجزائري في المطعم المجاور وهو يردد إغنية لم يغيرها منذ زمن بعيد . اتذكر الماضي بجراحه ، وأحلم براس قادر على النسيان ... احاول ان اكون معك في صدر اللحظة واتذكر اننا معا لكي ننسى .

نتسلق الدرجات الاولى للسلم الخشبي المؤدي الى بيتك ، أستند اليك محاولة نسيان وجه الطباخ الجزائري في المطعم المجاور ... نسمع وقع اقدامنا على الخشب العتيق . عند الفسحة الصغيرة في الطابق الاول نقرأ معا اسم احدى ممثلات فرنسا الشهيرات . ابتسم مرددة المقطع الاول من الاسم ... اتوقف متجهة اليك :

ــ فرانك ، اليست ...

لا تدعني اتم جملتي :

ــ قلت لك كفي عن ترديد حماقاتك ، انها فرنسية وليس الا هذا .

موجة غضب تجتاحني ، فأصر على اتمام جملتي . تنظر الي بشيء من التوسل وكأني افقأ في داخلك جراحا

قديمة ، لكنني عنيدة وقاسية في لحظات الاصرار . اشعر ان العالم ينبثق من داخلي ويتوزع على خيوط النــور في الوقت الذي أشاء . هذا ما منحني لفترة طويلة احساسا بالتفرد يقترب من النرجسية المطلقة في لحظات خطرة من عمري ... انتظر قليلا حتى نقطع باب الشقة التي قرأنا الاسم عليها ... تنعطف الى الطابق الثاني .. أستند الى الجدار المقابل واردد :

ـ انها يهودية ، اليس كذلك ؟

يعجز رأسك عن تحمل « المساطر » الفكرية التي القي بها دائما ... يضيق ما بين حاجبيك وتسند كفك الى كتفي:
ـ العالم مقسوم بالنسبة لك الى عالمين : يهودي وعربي . الا يوجد عالم ثالث بينهما ؟

أصمت ، اقول في داخلي لا ... لو عشت الجرح مثلي لقلت : لا .

يصلنا « السين » من الخارج ، عبر نافذة السلــم مختلطا بصوت المطر ... لا قنابل ... لا دم لا عويل ... اف كم كانت ميتة باريس !

في بيتك ، اخلع عباءتي عند المدخل . امد يدي الى منشفة معلقة على الجدار الف بها جدائل شعري الطويل واعتصر حبات المطر .

ـ وكلما سألتك : ماذا تفعلين في باريس ، تضحكين . تروين لي حكايا عن دراستك وعملك وزوجك . ولكن لماذا اخترت باريس ؟

تسألني وأنت تلقي بنفسك على مقعد في الشرفــة المطلة على السين .

ـ قلت لك كل شيء . لقد جئت الى هنا بصحبة زوجي وبدأت دراستي بعد ذلك . عندما افترقنا اخترت الاستمرار ، بانتظار العودة .

ـ هل انت مشدودة الى وطنك ؟

ـ كثيرا .

ـ ماذا لك هناك ؟

ـ ولماذا كنت مشدودا الى فرنسا ؟ لقد قرأت مذكراتك في السجن ، واحسست أن الايام التي قضيتها هناك جعلت منك فرنسيا ممتازا ... ربما فوق العادة !

ينقبض وجهك ، واشعر انك لا تريد ان تتذكر الماضي. تهرب باستمرار من الحديث عن ماضيك . تلك الايام البعيدة لم تعد ملكا لك .

ـ في السجن ، كنت أحلم كثيرا بجزيرة « السيتي » ، واتذكر اشجار حدائق باريس ، حتى خيل الي انني أعرفها واحدة واحدة .

كان قد مضى على عودتك الى فرنسا عامان ، عدت تائبا وراغبا في النسيان . اربعة اعوام قضيتها تحت الشمس الحارقة في احد السجون من بلد بعيد . بلد من تلك التي تسمونها في لغتكم « العالم الثالث » .

ـ لماذا رحلت الى هناك ؟

ـ هل انت صحفية أم صديقة ؟

ـ فرانك، لو تتصور كم يدفعني الفضول الى معرفة ماضيك . اتعرف انني قرأتك وانا في الثامنة عشرة من عمري ؟ لقد الهب كتابك حماستي وتحولت بشكل او بآخر الى احدى المدافعات عن آرائك في الثورة .

ـ مجنونة ، كنت لا تزالين ساذجة ...

ـ وماذا تعنـــي ؟

ـ اعني ان ما كتبته في السابق كان مغامرة دفعت ثمنها غاليا ، لكن دعيك من كل هذا . انا لا احب ان اتحدث عن نفسي . لماذا لا تحدثينني عنك ؟

ـ أنت تعرفني جيدا .

واصمت ، اصمت لانني لم اكن صادقة ابدا . فأنت تعرف نادية الطالبة التي جاءتك ذات يـــوم في « الايكول نورمال سوبيريور » لتستمع لآرائك ومحاضراتك عن الثورة، وهناك كانت علاقتنا . شعري الاسود ، ملامحي الفجرية شدتك الي ، بينما كان « الرجل الاسطورة » فيك يشدني ويجعلني ابدأ مغامرة لم آكن ادرك كيف ستنتهي .

باريس عام ١٩٧٦

الساعة السادسة ذلك المساء من شهر كانون الثاني.

دخلت الى قاعة المحاضرات في « الايكول نورمال » برفقة صديق صحفي من تلـــك البلاد التي رحلت اليهــا وناضلت فيها ... جئنا يدفعنا الفضول والياس لنرى نهاية ثوري محتـــرف .

ـ هل تعرفين ان فرانك سيحاضر هذا المساء فـــي « الايكوك نورمال » ؟. اتساءل اذا كان لديه ما يقوله ؟

قال ذلك الصديق الصحفي وهو يحدثني عنك ، وكنت قد تابعت موجة النقد العنيفة التي وجهت اليك عبر الصحف والاذاعات وداخل الاحزاب السياسية في البلاد التي تركتها،

وفي البلاد التي جئت اليها . كان صديقي ما يزال يعتقد ، ككل الطيبين ، بامكانية ثورة البروليتاريا في اوروبا وفي كل مكان ... يحق لنا ان نحلم ... لقد قالوا عنك كل شيء :

« ولد مدلل لم يستطع ان يستمر في النضال فعاد الى احضان برجوازيته » ...

« لقد استردت اوروبا ما صدرت الى السوق الثورية » ...

« لقد كان سببا في مقتل عدد كبير من المناضلين » ...

كانت هذه العبارات كلها ترافق الحملة الاخيرة التي اطلقت ضدك في الصحف ، وكنت يومذاك أمضي حزينة ابحث عن نفسي ... قبل ايام فقط ودعت زوجي الذي قرر أن يختار سلامه هو ، تاركا في جسدي وطنا يحترق . لقد سئم مني ، وانا اعيد سمفونية النسيان واللانسيان على مسمعه كل يوم .

قادمة من الشرق ...

قادمة من ارض تحترق حيث ودعت رفاقا لي ينتظرون لحظة الموت ولا يحلمون بالحياة السهلة . أخترت الهرب الى اوروبا ... أخترت التخمة والسلام والمراة في داخلي . هكذا خيل لي ولهم .

لماذا اجرح نفسي ؟ انني لم اختر ابدا . بل لقد اجبرت على الابتعاد عنهم ... حاولت ان انسى ، لكن الجرح المفتوح في القبلة والطائرات والسماء الزرقاء واجساد الرجال ، كلها كانت تشدني الى الماضي والمدن التي تلقي بثيابها في النار وتشتعل .

— هل تعرفين ان علاقتنا لا تحكمها العدالة ؟

— لماذا ؟

— انت تعرفين عني كـل شيء ... تقرأينني ... تفهمين ما أقوله ، بينما لا استطيع ان آقرأ ما تكتبين ... هل ما زلت شاعرة ؟

اضحـك :

— لماذا لا تتكلم العربية ؟

تتمطى فوق المقعد وتحدق الى السماء :

— هل تعتقدين انني سأكون قادرا على تعلمها ؟

— جـرب ...

— انني في الاربعين ، وأريد آن اعيش حياة مستقرة .

هكذا كنا نلتقي في الامسيات الباردة . لقاء الامسيات الباردة هو الاتصال الحقيقي بين رجل وامراة ، به يكتشفان حاجة جسديهما للدفء وكفيهما للمطر .

واليـوم ؟

شمس ايلول تنزف مطرا ، وانا وحيدة وانت بعيد ، وقد صحـوت .

مضى عام على حياتنا معا ... عام مذ تركت بيتك وزوجتك وابنتك وانتقلت لتستقر معي في بيتك الجديد مقابل قصر العدالة حيث بدأنا تجربتنا في الحياة معا .

— فرانك ... يعذبني ان تتألم زوجتك !

— ومن قال لك ذلك ؟ لقد انقضى اربعة عشر عاما على علاقتنا ... ولقد تحولنا الى صديقين .

اتركك في ظلام الشرفة المطلة على السين وانتقل

الى الصالة ... ألمح اكوام صحف ومجلات بلغات مختلفة « نوفيل كريتك » « كازاوف أميركا » « افريك آسي » . لفات كثيرة دون تاريخ ، بينما على الجدران خرائط لقارات العالم كلها ... قارات بعيدة تحدها البحار والصمت . صورة لبحار اسباني عجوز على شاطىء منفي يذكرنـي بشيخ « همنغواي » او كما قلت لك مرة بلوحة صديقتنـا « سيزير » .

ـ مجنونة ! ان « سيزير » لا يرسم الا شمس التشيلي وبنات المكسيك بعيونهن الشبيهة بعيون البقر .

لست ادري لماذا كنـت مصرة وبعناد ان اللوحـه لـ « سيزير » بالرغم من انك نزعتها من اطارها ذات يوم واطلعتني على تاريخها واسم الفنان البلجيكي « دلفو » الذي رسمها . يومذاك قلت لك أيضا وببساطة :

ـ لا يهم ، أن وجه البحار يذكرني بعالم « سيزير »، النظرة التي لا يمكن تفسيرها ، وايضا الشمس التي تبدو في اعلاها كقرص بني دون أي شعاع او بريق .

للمرة الاولى كنت ارى شمسا دون شعاع ... لا فرق ... لا اهمية لذلك .

حدثتني عن بلاد تشرق فيها الشمس عمرا وتموت في اشراقها ... قلت لي : « هناك ، كنت اتمنى المطر ... هناك ، وفي الاقبية وتحت التعذيب حيث الدم كان يغسـل جسدي ، تمنيت ان اعود الى فرنسا واشد جسدي الى أحد اعمدة باريس ولا افارقها ابدا ... لقد رسمت قبة « البانتيون » في راسي واعدت تخطيط شوارع باريس ... حلمت كثيرا بفنجان قهوة في « السان جرمان » .

تتحدث عن ماضيك كشيء لا يعنيك ، ويدهشني ذلك. ناسيا او متناسيا انك جسـدت لفترة طويلة احـلام جيل بأكمله .

ــ لقد صنعوا مني اسطورة ! انني غير قادر على تحملهـا ...

أخفض عيني حتى لا تلحظ أحمرارهما ، كان البكاء يهاجمني في مثل تلك اللحظات واتساءل لماذا انا معك ؟

اتجه الى الحمام حيث احاول من جديد تحت المياه الحارة ، ان انسى رفاقي واقول لنفسي : الثورة لم تكن كما يجب ... حتى فرانك هجر الثورة ... احاول ان اغسل اقنعتي وابعدها عن جسدي ... أكتم السر الذي عذبني وما زال يعيش في داخلي ... مناضلة قديمة تقاعـدت ، تحاول ان تنسى برفقة مناضل قديم نسي أو يحاول ايضا ان ينسـى .

قبلك كنت قد تحولت الى امراة عادية ، تأكل ، تنام ، تضاجع رجلا في المساء وتجري وراء عربات المترو في النهار ... أحاول ان اقنع نفسي بتلك الحياة وابحث من خلالها عن النسيان ...

« لا أظن انك نسيت .. صورة هدى الشافعي تلاحقك اينما اتجهت ... عليك أن تعيشي كامراة ... »

كان زوجي يقول لي ذلك ، وكنت اطرق الى الارض ، وأرى وجوههم وهم يغادرونني الى الموت .

فرانك تذكـر !

المساء يظلل ساحة « دوفين » ، وانـت في الزاوية تنتظرني . الليل يرعف ظلمته ، وأنا اغدو غربة ونسيانا ... أتجه اليك ... اضع رأسي في صدرك وأشم رائحة جلدك ... تمسح بيدك على شعري ثم تحوطني بذراعيك ... نسير معا تحت وهج الاضواء المبعثرة في صدر العجوز الام « باريس » ... نمـر بشارع « سانت اونرى » ... نتوقف قليلا امام الواجهات الزجاجية ثم نمضي وكان مـا تعيشه هذه المدينة المتخمة لا يعنينا ...

— تعرفين ، سأسافر غدا الى (...) انني مدعو للمشاركة بأعياد الثـورة !

كنت قد نسيت أنك جزء من تاريخهم ... نسيت انك ذلك الذي اشعل مدنهم حرائق ذات يوم ... كنت الرجل فقط بالنسبة لي ... الرجل وليس النموذج ... وأدمنتك لانك تحاول مثلي ان تتنسـاهم .

— هل ستغيب طويلا ؟

— شهرا على الاقل ، الا تفكرين بالمجيء معي ؟

— انت تمزح ، تعرف جيدا انني لا استطيع التحرر من عملي في باريس ... سأنتظرك .

— انتظريني ولا تكوني وفية لي .

انظر الى وجهك بدهشة :

— فرانك ، لن اكون الا انا .

في تلك الدقيقة ، عبرنا معا ساحـة « الشاتليه » واتجهنا الى بيتك ... عند التقاء رصيف « ديزورفيفر » بجسر « السان ميشيل » ، لمحت احد اصدقائي العرب ،

فجريت دون وعي باتجاهه ... ظللت ترقبني من بعيد بفضول مدهش ... هل ظننت ان أووربا قد أحالتني الى عمود ثلج ؟

في اليوم التالي كنا نقف امام حاجز الجمارك في مطار « شارل ديغول » ، ينظر كلانا الى الاخر ويحاول ان يبدو اكثر تماسكا . وسمعتهم يعلنون عن اقلاع الطائرة ... احساس غامض داهمني بأنها ستكون المرة الاخيرة التي نلتقي فيها ... حدقنا في وجوه المسافرين التي تملأ الممرات، وذكرنا ان اللحظة قد حانت لان نفترق ... بحثت عبثا عن شيء اقوله لك قبل الرحيل . لكن الكلمات خانتني ... تمتمت بعبارات غامضة وقلت لك : سأنتظرك .

فرانك !

مر شهر يا فرانك ولم تهتف لي ، لم ترسل ببطاقة عليها صورة لمناضلي القارة التي تحتويك (ملاحظة : لقد تحولت وجوههم الى بطاقات يبعثها المسافرون الى ذويهم).

في هذه اللحظة ، مصابيح الجسر التاسع في جزيرة « سيتي » تشدني اليها ، ارى شبحا على الشاليه القريب من ساحة « دوفين » حيث كنا نلتقي ... اتخيل للحظات انه شبحك ... اجري والريح تلاحق صدري وأوراقي التي اضمها الى صدري وأصرخ بلوعة :

ــ لماذا لم تعد ؟

يسمعني الحارس الليلي فيلتفت الي ويفحصني بشك مشحون بالرغبة ... احث خطاي عابرة احجار الجسر ، ويعلو من بعيد ، من داخلي ، صوتك : « عليك ان تكوني

انت وليس شيئا اخر الا انت » . أن الغربة تجعل منا في أوقات الضعف بشرا غير قادرين على الحلم .

كفـــى !

احبك !... لا أعرف ... الجـــرح فقط هو الذي يقلقني في هذه اللحظة . واتذكر بمرارة انني اعيش زمـــن الحرب ، وان السلام الذي كنت تحكي لي عنه ما هو الا اسطورة صغيرة نحن بحاجة الى تصديقهـــا لنعيش ... اتذكر فجأة انني غير قادرة على العودة الى بيتي ، هناك في شرايين الجـــدران العتيقة وأدت ماضـــي الحاضر ... الماضي الذي عذبني كثيرا وحاول أن يكون حاضرا في كل شيء حولـــي ..

أتذكر في محاولة نسيان مقصود وحاضر في راسي ، انني الان وحيدة وليس في جعبتي أي سلاح غير الجرح .

كنت احدثك عن الجرح ، أقول لك : ان في داخلي طعنة خنجر ، النزيف الدائم والابدي لا يتوقف عن تهديدي بالموت في اية لحظة من لحظات الليل ... الجرح المفتوح في العمق والذي كلما مر الزمن عليـــه ازداد عمقا وازدادت الرغبة في نسيانه قـــوة .

الجرح ، المرأة ، وايضا الوطن المنفي في الرأس ، و « أبو مشهور » ، وأنت ، وهذه الرحلات المجنونة في عالم الصمت والاغتـــراب .

الجـــــرح

أشعر هذه اللحظة ان الخنجر ينغرز أكثر في الاحشاء. اسمع هدير دمي في شراييتـــي يختلط بهديـــر « السين » العجوز ... اشعر بالغثيان ... بالرغبة المطلقة بالتوقف

عن الاستمرار في أي شيء ... باعطاء نفسي لحظة صغيرة قبل النهاية لكي استطيع ان احدثك عن الجرح ... اقترب من المقهى المقابل للشاليه الذي كنا نلتقي فيه ، أدلف الى الداخل والقي بعباءتي الى احد المقاعد ... افرش أوراقي على الطاولة ، وأتنفس رائحة الدفء ... يلمخني وجـه المرأة التي تعودنا ان نراها في الزاوية وهي تقرأ روايـة بوليسية لم تغيرها منذ شهور ... ربما تعيد نسج الاحداث في راسها وتتخيل نفسها البطلة الفاعلة وذات العلاقة بما يحدث في الرواية .

مرة ... تذكر ... قلـت لي وانـت تشير اليها :

ـــ « مؤلم ان ننتهي برواية واحدة في زاوية مقهى ، نعلق فيها كل متاعب العمر وخيبته ، ثم نبحث عن الكلمات ... عن شيء ما يجدد صلتنا بالعالم » .

نظرت الى وجهها فرأيتك بعد ثلاثين عاما وقد خفت الضجة التي تلفك الان ، ووقفت الصحف عن نشر أخبارك في زاوية مقهى عتيق من مقاهي جزيرة « سيتي » تعيـد قراءة ما كتبته ثم تحلم بأبطالك . وورود هـذه الفكرة الى رأسي في تلك اللحظة جعلني أرتعش ، وتذكرت دفعـة واحدة المدن العربية . الشمس التي لا تخلفنا وحيدين . الهواء الذي لا يعقد معنا أية معاهدة .

قلت لك مـرة :

ـــ فرانك ! مرعب ان يشيخ المرء في بلادك . ان الوحدة مسألة لا تطاق هنا .

أجبتنـي :

ـــ ولكن من المرعب أكثر ان لا يجد الانسان وحدته .

لم يقنعني الجواب ؛ حكيت لك يومذاك عن امـــي وابي ، عن عشرات السنين من شجارهما الذي كان يصل الى الطلاق ثم يعودان من جديد من اجل تسعة اطفال ألقيا بهم الى الحياة في لحظات حب عابرة .

أتذكر وجهيهما في هذه اللحظة ... أحاول أن استنجد بقليل من الحب لاجلهما . اشعر أنني منفية عنهما وان تلك الارض حيث هما اصبحت بعيدة وغريبة .

اين وجهك يا ابي في هذا الليل ؟ أين كفاك اللتان ابتعدتا عني في محاولة لحمايتي ؟ وأنت يا امي اقول أنني..

وحدثتك عن الليالي الطويلة في المدينة المطلة علـــى المتوسط ... عن البحر ... عند البحر توقفت طويلا ... قلت لك : ان لمياهه لون الليل ، ولم تصدق .

— للبحر لون واحد ايتها المجنونة ... هو الزرقة !

اقسم لك كطفلة مذنبة تحاول التكفير عن اخطائها : انني رأيت الوانا كثيرة للبحر . ظننت انني قد سكـرت ، وكنت لم أمر بالكأس الاولى بعد . رويت لي أسطورة عن رجال يتخيلون انفسهم ابطالا في لحظة السكـــر ويرون في الجبال احجار شطرنج صغيرة يمكن لهم تغيير مواقعها .

— لا تعرفين شيئا عن تاريخ الغوليين .

— افضل أن اغفر انتسابك الوقور لهم .

— مجنونة ... الانتساب والوقار لا يحتملان ، قولي لي مثلا : ايمانك المسيحي بهم .

كنت أحاول معك ان امارس صحوي المطلق وانا احكي عن البحر وامي وابي . حاولت ان اعود الى المنابع التي

تشل في داخلي الرغبة بالانتماء المطلق ... عند زاوية الشارع المقابل لمقهى « الفلور » ، أسندت راسي الى جدار الكنيسة العتيقة ، وحاولت ان ارسم بعيني صورة لك على الرصيفُ الحجري . كانت باريس مثلها الان في الساعة الاخيرة من الليل .

شهر مضى على رحيلك وبدات استفيق ، بدات ادرك انني هنا بشكل مؤقت ، وان هذه البلاد لن تكون ارضي الى الابد ، وسوف أظل احلم بالعودة آلى الارض التي تركتها في صبح اغبر واشعة الشمس تلامس جبينها .

شهر مضى على رحيلك وبدات اعرف أن السنوات الماضية التي قضيتها هناك لم تكن الا محاولة عبثية للنسيان. حتى يوم عرفتك ، كنت قلعة نسيان ليس الا . .

اربعة اعوام ، هذا حدي الاعلى ، وما يدفعني الان لان أقذف بنفسي الى الخارج او لان اعيد النظر في حياتي انما هو غريزة البقاء ... علي ان آخاطر بحياتي لانقذها ... قبلك يا غرانك حاولت الاستنجاد بالثقافة والرجال وهدير العصور ... حاولت الاحتماء بالتوسر وغولدمان وشار ، ثم ادركت أنهم الوجه الاخر لخوفي من الموت ، بل لخوفي من الحياة . قلت لك قبل ان تمضي :

ــ لماذا لا تعتذر عن الدعوة الموجهة اليك ؟

ــ اشعر بأنني اشيخ هنا ، اريد ان ابدل الجو قليلا . لقد اعتقدت بأنني ساكون انسانا عاديا في وطني ، لا خبيرا ولا مستشاراً ، بل بكل بساطة مواطنا يريد ان يعيش .

ــ ولكن كتب عليك ان تلعب هذا الدور ، فأنت الخبير والمستشار في ارضك ولن تكون المواطن العادي ابدا .

وسألتني يومذاك :

ــ وأنــت ؟

ــ انا ؟.. كنت انسانة تبحث عـــن دمها هناك ، ونسيت البحث عن دمي هنا ... تقاعدت في عالم رجل ، وها انذا اعود من جديد الى العالم لابحث عن مجتمع اكثر عدالـــة .

ــ تتكلمين كثيرا عن الديمقراطية ، فهل يمكن لها ان تنجح في بلادكـــم ؟

اطرقت براسي الى اسفلت الشــــارع وتذكـــرت ان المراة العربية ستظل لفترة طويلة تحمل راس زوجها واولادها على كفهـــا باحثة عن الثار :

ــ قضية في غاية التعقيد ، لا اظن ان هناك من حل غير الثـــورة .

ــ ماذا تعنين بالثورة ؟

ــ تلك التي تكلمت عنها في بداية حياتـــك : تفجير حرائق في امكنة متفرقة من العالـــم .

ــ عليك ان تعرفي ان هذا لم يعد ممكنا . انظري الى خارطة العالم تستطيعي ان تحكمي . لقد حلمت كثـــيرا وادركت فيما بعد ان البشرية قد تعيش ويمكن لها ان تموت من احلامها .

كنا نعبر شـــارع بونييه باتجاه المدينـــة الجامعية ، وفجأة قررنا أن نغير اتجاهنا ونخرج من باريس لان احساسا

بالاختناق كان يهاجمنـــا ... وهكذا اتجهنا الـــى بيتك في الضواحي عابرين سهول النورماندي الخضراء ، بينما النهار يلملم اخر خيوطـــه .

اقتربنا من « انفلور » ، كان المانش في اسفل الهضبة التي نتسلقها يبدو غارقا في عتمة بداية المساء ، والقوارب الشراعية قد توقفت عن رحلاتها اليومية ... رائحة عطرية لذلك الليل تتغلغل في فضاء السيارة ، يداك قد بدأتا تتراخيان على المقود . ملت براســـي على كتفك وشعـــرت لدقائق بالراحة . سمعت صوتك آتيا من بعيد ، ورنـــة اختناق تجعله اشبه بأجراس الكنائس في لحظات الموت .

(جاءني مدير السجن في المساء وطلب مني ان احضر اشيائي ، فقد تقرر نقلي الى سجن اخر . كان قد مضى علي عامان في ذلك السجن ... كنت اشغل حجرة منفردة. ممنوع علي الاختـــلاط بالسجناء الاخريـــن ... النزهات الاجبارية الى الاقبية الغيت منذ وقت طويل ، وبدا جسدي يستعيد حيويته بعد أن أوقفوا تسليتهم به ... قلـــت لنفسي : لا بد ان اعدم . كلما كنت انقل من سجن الـــى سجن ، أمر بمكتب رئيس المخابرات العامة ومساعديه من الضباط الاميركيين حيث تبدأ اسْطوانة التحقيق معي من جديد . كيف دخلت الى البلاد ؟ وبمن التقيت ؟ اسم الذين كانوا معك يوم حوصرت العاصمة . كانت اجاباتي تسجل من جديد في كل مرة ... ولم ينفع توسط السفارة الفرنسية ولا الحملة التي قامت لانقاذي ... كان قرار الادانة قد صدر . السجن مدى الحياة ، وبدات اعي بين الجدران الاربعة صلاحية العالم الخارجي ، لذة النزهات الصباحية على رصيف « ديزور فيفر » ، وجه صديقتي المليء بالاسى .

وصوت « آبيل » المربي الحازم . كنت لا اريد ان اتعفن بين جدران السجون بل اتمنى آن اعيش مرة اخرى لاراهم جميعا .

« وجه حارسي الذي تعودته بدا لي في ظلمة الممر شيئا عزيزا اجبر على تركه ، وكنا في الايام الاخيرة قد تآلفنا . كانت مرحلة الانفتاح على القوى التقدمية في الخارج من قبل ضباط النظام العسكري الجديد قد جعلت امكانية الاتصال بالبشر اسهل من قبل ... كنت قد تعودت وجه حارسي ... ووجه جلادي ايضا ... جدران غرفتي وخشب طاولتي الملوث ببقع الحبر . كان الحارس يحدثني كل يوم عن موجة من الجفاف تجتاح البلاد ، تلك الموجة التي جعلت الحياة صعبة ووضعت الاقتصاد في ازمة ، ومن وقت لاخر كنت انعم ببعض الصحف المحلية التي ينجح بتهريبها لي ، وتألمت كثيرا لتوديع هذه النعم وتغيير الجلادين .

قال لي الحارس وهو يساعدني على وضع كتبي في كيس :

ـ اتمنى لك الحرية يا سيد فرانك ، لقد تعبت من غير شك .

بعد رحلة ساعات في سيارة جيب عسكرية معصوب العينين ، كشفت العصبة عن عيني ووجدت نفسي في مكتب رئيس المخابرات العامة . انه هو ... لم يتبدل ، لكنه وحيد هذه المرة من دون مساعديه الاميركان .

ـ سنطلق سراحك هذا اليوم ونتمنى آن لا نرى وجهك ابدا .

لم يكن لدي ما اقوله لهم . لقد قررت ان لا اعود الى تلك البلاد ، ولكنني سأكون ضد الفاشية أينما وجدت. تذكرت كلمات « آبيل » وهو يودعني قبل ان اتركهم داخل الغابات المجاورة للعاصمة .

ـ عد الى بلادك واكتب عنا ، لسنا بحاجة الى مقاتلين .... عد حيث لا يتساءل البشر من أنت وماذا تفعل بينهم؟ .. بل حيث يسألون من اية مدينة قدمت وابن من ؟

في عتمة الصبح قطعت شوارع العاصمة في سيارة عسكرية ، بعد أن سمح للملحق العسكري في السفارة الفرنسية بمرافقتي الى المطار والاتفاق معي على الجهة التي أفضل السفر اليها . واخترت باريس دون أدنى تردد) .

انظر اليك . العرق يتصبب من جبينك وعيناك تبدوان تحت ضوء المصابيح الصغيرة المنتشرة على حافتي الطريق المؤدي الى « انفلور » زائغتين كبحيرتي زئبق . حاولت ان اكون هادئة ، حنونا ، وانا استمع اليك ... حاولت ان لا اطرح اسئلة اكثر ... السجناء لا يحبون تذكر الماضي . حاولت ان اهرب من تذكر ايامي السابقة في صدر الوطن وتلك الايام الاخرى ما بين موانىء العالم باحثة عن العدالة من اجل شعب يعيش تشرده بأسى .

اوقفت السيارة في مدخل الحديقة وهبطنا معا ، كان راسي قد ترك « المانش » و « انفلور » موطن السرياليين ، وكذلك وجهك ، واتجه الى الشرق وايامه الصعبة . اتجهت

الى ماضيك أنت وحاولت ان افهم رغبتك الحالية في الابتعاد عن مواقع الخطر واختيار الامان .

تحت ضوء المصباح الذي كان يصلنا من الحديقـــة ، استلقيت على ظهري مفترشة ارضية الصالون الخشبية ؛ أحدق بالسقف بينما يصلني البحر من الخارج وقد طغى صوته على صوت الريح التي تصفر في اعمدة النور وتمزق صمت اشجار الدفلى والياسمين البري ... كانت السماء تغترب في صدر العتمة وكان من الصعب علي ان اعـــرف الوقت في تلك اللحظة ... حاولت ان ابحث قليلا في ذاكرتي عن بديل للزمن الحاضر بيننا فلم اقع الا على ايامي في الشرق حيث رفاقي تحت لهيب نيران « عينتاب » التي تحتـــرق ... اختلطت نيران « عينتاب » في ذاكرتي بصوت تكسر الموج على الشاطىء ... كنت وراء طاولة في الزاوية تكتـــب شيئا وتحدق الي بين الفينة والاخرى بعينين زائغتين .

منذ سماعـــي نبأ موت « مـــاري روز » المريع وانا ارتعش واطرح الاسئلة :

لماذا قتلت « ماري روز » ؟ لماذا قتلوها ؟ لقد قتلت منذ ثلاثة أيام في « عينتاب » وهي تعبر حاجـــزا مسلحا . كانت ماري روز احدى رفيقاتي في اخر عملية قمت بها في أوروبا .

في تلك الساعة اتجهت بالحديث اليك :

— هل سمعت بمقتل « ماري روز » ؟

— اية ماري روز ؟ هناك الكثيرات في العالم .

— ماري روز اللبنانيـــة — السورية — الفلسطينية التي قتلت بالامس في « عينتاب » . أو بالاحرى لسنا نعرف

بعد اذا كانت قد اعدمت أم انها خطفت لتعدم فيما بعد .

ــ فلسطينية ، أليس كذلك ؟

ــ انها كما قلت فلسطينية ــ سورية ــ لبنانية ومن مدينة « أرم » .

ــ هل كانت تعمل مع الفلسطينيين ؟

ــ وهل تظن انها خطفت لانها كانت تغني ؟

ــ وانت ، هل تعرفينها جيدا ، ما الذي ذكرك بها في هذه الســـاعة ؟

ــ اعرفها جيدا ، لقد كنا معا .

عندما نطقت عباراتي الاخيرة ، تذكرت فورا انه لا يحق لي ان اتحدث عن حياتي الماضية . لقد قطعت عهدا ان لا أتكلم عن ماضي ... وتفجرت غيمة أسى في راسي حزنا على مقتل ماري روز ... استيقظ حقدي على هذا العالم وتمنيت ان اكون هناك .

ترفع راسك عن كتبك وأوراقك وعالمك المليء بالكلمات ... تهرب قليلا من رتابة الحروف ، من رتابة اللحظـة نفسهـــا :

ــ قولي : هــل صحيح مـــا يروى عـــن القيادات الفلسطينية ؟

ــ ماذا تريد ان تقـــول ؟

ــ لست أدري : ارتباط بعضها بالانظمة الرجعية ، الثراء ، وقوفها في وجه الوحدة الوطنية ..

تضحك المأساة دما ، ليكن ، بم اجيبك ؟

ـ ليس لدي رغبة للخوض في هذا الموضوع ، الآن علـــى الاقل .

لا تبحر بعيدا .. رتابة الكلمات واللغة والروايـــات التي تعوض فيها عن الفعل الحقيقي تشدك من جديد ... تعود لاوراقك ... استمر انا في صراعي الداخلي . لماذا لم تسألني عن حياتي انا ؟ لماذا لم يدفعك الشك واليقين لتمزيق أقنعتي والبحث وراء الوجه الذي تحب عن المرأة ـ الشجرة ؟... تمر اللحظات وانا مستلقية على خشـــب الارض أحدق في السماء التي تهاجمنا من النافذة ... ارى حياتي معك محطة مؤقتة في طريق العودة الى الشرق ... أرى دم ماري روز على كتبك وأوراقك ونوافذ غرفة نومك ... دم احمر كالورد يمنـــع التاريخ والفرح مـــن عبور الزمن ، اين انا ؟ ولماذا ؟ أعود قليلا الى الوراء ... الى حياتـــي الماضيـــة .

(من انـــت ؟

الصوت يهاجمني في كل دقيقة فيقلق استســـلامي وراحتي . اتذكر المدينة الساحلية الصغيرة حيث ولدت ... وجه ابي الضابط السابق في الجيش الفرنسي ... ستار الاعتزاز الذي يغطي جبينه وهو يتحدث عن اصله الكردي ، ذلك الستار الذي كان يخنقني ويدفع بي احيانا الى الصراخ:

ـ كف عن هذا ، لقد ولدت هنا ولا اعرف لي لغة اخـــرى .

من تلك البقعة حيـــث يعيش البحر بصمت والجبال القريبة تنتظر ، تعلمت رسم العالم مبتدئة بخليج الاسكندرون ... العالم لا يبدأ من مكان اخر ... وفي المدرسة عرفت

ان فلسطين قريبة والرحلة اليها ممكنة على ظهر زورق...
وكبرت ... اكتشفت الحقيقة كلها ... الطريق الى فلسطين يمر في صدر المدن العربية . ابي يفخر باجداده الذين حرروا القدس ... يفخر بانتسابه لاخر الامراء الاكراد ... يعيد على مسامعي قصة اصولي النبيلة : «دمك يختلف عن دم الاخرين ، انت اميرة ، ارفعي راسك ولو كنت تطرقين الى الارض ... انت اميرة » ... تلهب الكلمات مخيلتي ، احترق في الكلمات ... أركب في الحلم فرسا وأطير فوق زرقة المياه المالحة ... تمتد المياه المالحة الى ما لا نهاية...
اقترب من الخط الذي يحدد لقاء البحر بالجزيرة .

« في جزيرة « ارواد » استحم ملك مصر وعشيقته »

يمر الزمن محملا بمطر المدينة البحرية ورائحتها ... يستيقظ العشب وأشجار الصنوبر ... التقي في عامي الرابع عشر مدرسة قدمت الينا من « ارم » ، تحدثني عن الشعب والجماهير والحرية ... تحدثني عن العدالة ... تحدثني عن حزب يحاول اعادة رسم المدن العربية، وتسالني ذات يـــوم :

ـ لماذا لا تنضمين الى الحـــزب ؟

لم أكن أعي حدود الكلمة بعد ... صغيرة انتميت اليهم ... صغيرة تعلمت ان لي رفاقا على امتداد الخارطة العربية يقاتلون الواقع المر ويحلمون مثلي بالزمن الاتي ...
صغيرة عمدت فلسطين حلما ، وعرفت مذابح دير ياسين والقدس ، أي راس كراسي في ذلك الزمن ؟... أي حزن لابنة الرابعة عشرة التي اتذكرها الان عندما تعـــرف أن السنوات تمضي والزمن لا يتوقـــف وفلسطين بعيـــدة ، والحرية التي حلمت بها لم تأت .

أذكر اللقاء الاسبوعي برفيقاتي ، كنا نحول الكلمات الى بقع مضيئة ، ونعيد ترديد الشعارات واكفنا ترتجف . احساس غامض دفع بي لان اخفي أخبار لقاءاتنا الاسبوعية عن أبي وامي ... كنت احيا احساسا مدهشا أمنعه ان يرى الايام العادية ... اقرأ ليلا النشرات السرية ... الخصها ... أحفظها ... وفي عتمة الصبح اخرج الـى الطرقات لاوزعها سرا على بيوت الرفاق . تحت المطر .. تحت الثلج والعاصفة ... تحت الصيف والشمس الحارقة كنت انتقل من بيت الى بيت ... من شارع الى شـارع وخطر اكتشاف امري ليس بعيدا . البلاد كلها تعيش فترة مخاض في ظل حكم دكتاتوري ... عيون الشرطة في كل مكان ... وانا اعيش مغامرتي .

تقول لي « المدرسة » : عليك بالحذر ! لو علم أهلك لكانت كارثة . لو علم الشرطة لرماتوك الى السجـن . لم يكن السجن يرهبني ولا اهلي ... انتظر مع رفاق لي ان يأتي الغد ... من الرابعة عشرة وانا انتظر الغد والغد لم يأت ، كانت رحلتي طويلة عبر مدن الشمال وأشعار سليمان العيسى . الموسيقى الملونة لكلماته ... وانا اكتب على أوراقي اشعارا مبكرة ... كلمات ... كلمات عمدها لون الثلج والايام الاتية .

مرة اخرى ابـي واسماء اجـداده وصورهم علـى الجدران ... دمه الازرق ... الامراء الذين انجبوه والقوا به الى العالم ... مرة اخرى ابي ، حدثني عن مكانتهـم وموطنهم ... حدثني عن الجبال التي يسكنونها .. حدثني عن الاحياء منهم ولم يكن الامر يعنيني . ما كنت أود معرفته: هل يحبون شعر سليمان العيسى وثورة بغداد ؟

اكبر قليلا ... يستدير وجهي وتلمع عيناي على وجه المدينة ... تحدثني امي عن ثري يرغب الزواج بي ... تعدني بالاموال والقصـــور والرحلات التي لا تنتهي الـــى اوروبا . ترسم لي بيتا يتفيأ الدفء ورائحة رجل قد اتخمته الثروة ... اتذكر اخواتي الثلاث وقد انتهى بهن المطاف الى بيوت واسعـــة ، ورجال لهن ملامح ابـــي ... اذكر اخواتي وقد تحولن الى آلات تفريخ جميلة وبضة . ارفض، اقول لا ... اتمسك بدراستي وكتبي طالبة حمايتي من هذا القادم الغريب ... تصرخ امي :

ـــ مالك والدراسة ؟ لن يدعك تعملين ... سيغمرك بالمـــال .

في الامسيات الصيفية اغلق نوافذي ، واكتب علـــى الورق كلمات احاول أن أحملها راسي الذي اصبح ثقيلا .. اكتب اشعارا عن الحب وفلسطين وارسم وطنا جديدا ... ارسم حزبا جديدا . اخلق رجالا ... يصبح الحلم اكبـــر من الكلمات ... اسقط في الحلم وانتظر .

ـــ ستكونين شاعرة جيدة

هذا ما رددته « المدرسة » وانا اعرض عليها بعض ما كتبت . قلت ذلك لامي فسخرت مني . قالت :

ـــ الشعر جنون وانت عاقلة وستكونين اما وزوجة لأثرى اثرياء المدينة . انت اميرة وعليك ان تعرفي ذلك .

منذ ذلك اليوم وانـــا اعيش قرفا للحكـــام والسادة والامراء ... ابحث عن الوجه البديل لهم فلا اجده الا في دم الصعاليك الذي هدرته القبائل العربية ... انتمي الى مملكة الصعاليك ، عل دمي يكون مهدورا في يوم ، ارفضهم جميعا : السادة والامراء والحكام .

يأتي الثري الغريب الى البيت ويعدني بالفرح والمال والسعادة ... ألمح الكلمات تخرج من بطنه وعينيه لتتبدد في سماء الغرفة كذبا « لا احد يملك الغد !! ألامـــوال لا تغريني . ولن اعدك بطفل » .

يرحل الثري الغريب وتبكي امـــي حزنا عليه ... يصرخ ابي في وجهي :

— الى اين انت ماضية ؟ ستضعين راسنا في التراب. البنت خلقت للزواج .

تمر العاصفة في البيت الواسع المحاط بالنخيل ... يصرخ اخوتي الذكور : هذه المجنونة ! ستكون فضيحة لنا ... تمتد يد احدهم الى شعري الطويل وتمسك به ... يضرب براسي الحائط حتى يسيل دمي ، أرى دمي احمـــر ونقيا ، لقد كذب ابي دون شك يوم تحدث عن الدم الازرق. اسقط مريضة ، الجسد لا يحتمل الحلم ، انتظر اياما ... شهورا ... سنة ثم أرحل عن البيت . الى « ارم » لاتمام دراستي الجامعية ، لقد فشلوا أخيرا في أن يجعلوا مني آلة تفريخ . اذكر « ارم » والضباب ورائحة الملح علـــى جسدي ، الحزب في راسي ووجوه الرفاق الذين لا اعرفهم لكنني أنتمي اليهم . أحول حياتي الى ساعات طويلة من القراءة واتعرف على الماضي والفلسفة والتاريخ . ارى صورتي عبر التاريخ واعيش حياتي اليومية بانتظار الزمن الاتـــي .

رسائل امي محملة بالعتاب واللوم والوصايا . رسائل ابي تطلب الي ان اعود اليهم عذراء واتجنب الرجال ... الزيارات المتفرقة لاخوتي رغبة بالاطمئنان علـــى شرفهم . الجامعة المسكونـــة خيبات وحديث عـــن الثورات والغـــد

والشعـــر ايضـا .

تضعني « أرم » شـاعرة تصرخ بحقدها التاريخي ، بالظلم الذي لحق بشعبها ... تضعني أمرأة تعشـق وتنتظر رجلها . التقي الرفاق في الحزب واحدثهم عن الواقع الذي يحياه الشعب ... اقول لهم : تحولتم الى مجموعة حكام تحلمون بالمناصب والسيارات الفارهـــة ... أقول لهم : الحزب الذي رسمناه في مخيلتنا لا علاقة له بكم ... اقول لهم : لا تتحدثوا عن الشعب ، الشعب بعيد عنكم . يهزأون بي ويمضون ... يصـــدرون البيانات . يملأون جـــدران المدينة اكاذيب ... أرى الهوة تفتح فمها لابتلاعنا . اكتب عن عزلتهم ... عن شكهم بالجماهير ... عن الاخطاء التي ترتكبكل يوم . تنتصب الجدران بيننا ... يضيق بـــي الرفاق واضيق بهم .

ليالي وانا ابحث عن الاحلام التي عشتها في المدينة الساحلية ... عن آبائي المفكريين ... عـــن الشعارات العريضة التي عشت لاجلها واخترقت حجب المطر والضباب والليل والحكم الدكتاتوري . لكنني اكتشف ان الحلم شيء والواقع شيء اخـــر .

تجرني خيبتـــي الى مقاهـــي المثقفين في « أرم » و « عينتاب » . وعبر الدخان واقداح الويســـكي نطلق اصواتنا تتحدث عن « الثورة » ... تنتهي الكلمات فـــي الدخان ... يسقط الحلم في اقداحنا . تموت صرخاتنا في ابيات شعر هزيلة ... تنطفىء حرائقنا في اجسادنا وفي نهاية الليـــل نتجه جميعا الـــى الشوارع ونغنـــي اغاني « عراقية » حزينة « فراقك صعب يا هواي » .

تاتي الحرب التي ننتظر ولا ننتظر .

أبحث عن بندقية ... عن نار ... عن سكين اردهم بها عن ابواب « ارم » .

لا بندقية ... لا نار ... لا سكين .

تأتي الهزيمة وأجد نفسي على الارصفة والطائرات تلقي بقنابلها على الاطفال والرجال والشوارع وحتى على قلوبنا ... تنغرز السكين في الصدر ... يسيل الدم اسود هذه المرة ، ومرة اخرى يكذب ابي ، فدمي ليس له لون الفـــرح .

عام ١٩٦٧ الهزيمة وأنا ممزقة . واحدة من الملايين الذين اثخنت الطعنات اجسادهم . شاعرة ... مثقفـــة مقاهي تعي هزيمتها وتعيش عجزها عن المواجهة : صوت الطائرات يمزق سكينة ايامي ... ارى العالم بأسره وقد تحول الى طائرات تقذف « ارم » بالنار . خرائط العالم كلها تختلط في راسي بصورة الجبهة التـــي سقطت ... بصورة افواج النازحين الجدد . وسميناهم النازحين حرصا على القواعد اللغوية .

اذهب الى رفاقي في الحزب ... اذكرهم ! لا الذكرى تنفع ولا البكاء . الجرح يبتلع كل شيء . تموت الكلمات في الشعر ويموت الشعـــر في خنادق الخيبـــة ... يسقط الابطال عن جيادهم وتمزق الاقنعة . نبدو جميعا تحـــت نار الهزيمة بوجوهنا الشمعية عاجزين مكبلين . تمر الايام وندفن جرحنا لكننا لا ننسى .

اذكر عام ١٩٦٧ وانا ممزقـــة ... واحدة من ملايين المهزومين ... مثقفة مقاهي الاحتجاج والصراخ الحبيس في الحناجر . تداعينا لعقد مؤتمر للكتاب سميناه خطأ مؤتمر المواجهـــة .

اذكر ذلك جيـــدا .

صالة كليـــة الاداب تضج بكلماتنـــا الفارغة التـــي استهلكتنا واستهلكناها ، اشعارنا التي بدت بعد الحـــرب كوجه عجوز دون أصبغة ... انتماءاتنا السياسية المختلفة صورة لازمة حركة الامة التي ننتمي اليها ... الاضطهـــاد الذي يطبع جبين المناضلين الحقيقيين منـــا ... السجون التي مزقت صدور الكثيرين ولسنوات طويلة ...

نجتمع ونلقي خطبا ، نجتمع ونقرأ شعراً ، نجتمـــع ونشتم الانظمة ... نحدق بوجوه بعضنا البعض فنـــرى الانظمة والسياسيين والقاتل والقتيل ونحن . الحلم يجرنا الى الفراغ ، والادباء الرسميون ادباء الانظمة والفيـــلات والمكاسب لم تتغير بزتهم ولا شعروا بالخجل ... اقرف احيانا واترك صالة المؤتمر ... انطلق الى بار عتيق بجوار الجامعة حيث اسقط فيه بكأس ... الخمر هـــي البطل الوحيد بعد الخامس من حزيـــران ... انتصرت الخمـــر والحشيش وصوت أم كلثوم ، وبدأ العجز في كل شيء .

آه كم فكرت بالمـــوت !

بحثت طويلا عن مسدس انهي به حياتي فلم أجد ... قالوا لي : آن السلاح في المخازن الرسمية وكانـــت يدي قصيرة عن ان تطرق ابوابهم . حتى الموت يحتاج الى اذن رسمي وتصريح حاكـــم ... يحكمون مـــوتنا وحياتنا ... يتثاءبون ملل ايامهم ويعمرون لنا قصوراً في الهواء .

عام ١٩٦٧ بعد الحرب .

انتهت الجلسة الصباحية لمؤتمر « المواجهة » ... خرجنا من قاعة الاجتماعات نحمل رؤوسا حولتها الثرثرة الى علب فارغة ... كنا قادرين على اعادة الخطب وترديد

الشعارات ، وقادرين ايضا على استبدال الهزيمة بالنصر.

اطرح اسئلة على الاصدقاء فيجيبونني بأسئلتهم ... ابحث في احضان الرجال منهم عن لحظة امان ، فنرتعد معا بردا وخوفا متخيلين طائرات .لا حدود لها تسقط قنابلها وحقدها على أجسادنا . احمل مصباحا كعجوز تبحث في عتمة الليل عن شبابها وابحث عن شيء يسندني . رفضت قراءة الشعر كما رفضت سماعه . تواجدت مع الادباء فحاولنا ان لا تلتقي وجوهنا ... قلت : ربما نعود يوما الى جلودنا ونكتشف أن هناك قرودا تسكنها . جررت نفسي الى غرفتي في الفندق وقررت النوم عله ينسيني المسرحية التي اعيشها ... النوم شرس وعنيد وحر القاهرة يمزق وحدتي ... تضيق الجدران المحيطة بي . أرى الخارطة العربية سجنا . اسمع القيد والسلاسل والمس جسدي ، ما زلت احيا .

يرن الهاتف ... اتجاهله . لا بد وانه احدهم ، احد اولئك الذين أتخموني في الصباح حديثا عن الجماهير ومعركتنا الكبرى ، لكن الهاتف لا يتوقف عن الرنين ، لا بد وأن صاحبه قد قرر ان يكلمني اينما كنت ، اقطع صمت التردد وارفع السماعة ... صوت غريب لم اتعود سماعه :

ـــ هل انت نائمة ، لقد حان وقت جلسات المؤتمر .

رغبة بالصراخ هاجمتني في تلك اللحظة . اقول له اذهب أنت ومؤتمرك الى الجحيم، كفانا تهريجا. نحن الشهود والممثلون والمسرح ؟ اقول له دعونا من مؤتمراتكم وخطبكم واعراسكم ؟

يستمر الصوت :

ـــ انا عصام حاتم ، اريد التحدث اليك على انفراد بعيدا عن المؤتمر .

أتذكر عصام حاتم ايام الجامعة بجسده النحيل ووجهه المليء بالاسى ... بعينيه الشاردتين كعيون بشر هبطوا من نجمة ما في السماء وما زالوا يبحثون عنها ... اذكر مناقشاتنا حول ضرورة التغيير في المنطقة ... وأذكر اكثر فلسطينية عصام . كان فلسطينيا حتى الجرح . اذكر ايام الشقاء في « ارم » وعصام يأتينا الى المقهى المقابل للمتحف الحربي حاملا اوراقه واشعاره ... يقرأ لنا اخر قصيدة ثم يحدق في وجوهنا ليرى اثرها .

كنا نتشاجر احيانا ونختلف ، فهو ينتمي الى حزب تقدمي يعيش مراحل نضاله السرية ، وأنا انتمي الى حزب تقدمي اخر يعيش أيامه العلنية ... وجه عصام ليلة الخامس من حزيران والهزيمة تمطرنا طعنات وجه لا ينسى.

اقول له على الهاتف أنني آتية ... تدفعني لرؤيته احاسيس عجيبة ، وربما التشفي ؟ الرغبة بالتجريح ؟ الرغبة باعادة الحسابات ؟ ولكن كل أحاسيسي تتبخر وانا اهبط السلم ، اية رغبة بالتجريح تلك ؟ اي كشف ! لا حزبهم ولا حزبنا ... لا ساستهم ولا ساستنا بقادرين على ان يصنعوا شيئا .

نتعانق كصديقين قديمين ... نتحدث بسرعة عن ماضينا . نقفز الى الحاضر . اسأل عصام :

ــ ماذا جعلت الحياة منك بعد هجر صفوف الدراسة؟

تلمع العينان الغائرتان ويسألني دون مقدمات :

ــ اما زلت في الحزب ؟

ابتسم بمرارة :

ــ تركته او بالاحرى ابعدت . لقد وجد الرفاق انني

غير صالحة للنضال ، الشعر والنضال لا يجتمعان .

واضيـــف :

ـ برجوازية صغيرة مثقفة في حزب ثوري .

نبتسم معا ونحدق في وجه احدنا الاخر ... الزمن على وجهينا ... مر الزمن من هنا وترك بصماته على كل شيء .

اسال عصـــام :

ـ وانــت ؟

ـ تركت ، يبدو ان الفروق بين التنظيمات السياسية لا تكاد تذكــر .

ـ هل حضرت جلسات المؤتمر ؟

يشعر الهزء في كلماتي :

ـ لم تتغيري ابدا ، هذا انت ! لقد حضرت بعضها .

ـ وقــرأت شـعرا ؟

ـ استمعت للقصائد الحماسية .

ـ لم يخجلوا ، تصور ان يوسف ما زال مصرا على تكسير رؤوسنا بكلماته العريضة .

ـ ولماذا تريدين ان يخجلوا ؟ قلة الحياء في كل مكان!

غرقنا معا بالصمت ، يا لتلك اللحظات التي نعود

فيها بعد زمن الى اعماق اجسادنا ونرى وجوهنا في المرايا ... انظر الى وجهه ... الى وجهي انا قبل سنوات وكنت ما ازال اتكلم عن الانتصارات ، كنت ما ازال اجيد الخطب وترديد الشعارات ... كنت ما ازال اصدق ما تعلمته في المدرســة .

أقول له : حدثني ، ماذا تفعل الان ، مضى زمن لم نلتق به . هل هجرت « ارم »؟

ــ هجرتها ؟! تعرفين انني غير قادر على هجرهـا ولكنني اعمل الان مع رفاق لي على خلق تنظيم فلسطيني مسلح . فنحن مقتنعون ان البندقية هي البديل الوحيد لكل هذه الخيبات .

صوت جديد يأتيني في سمفونية الهزيمة ... صوت آت من المستقبل ... من الرفض ... صوت يتخطى تخاذلي واستسلامي لليل والنهـار . لقد وجدوا مسـدساتهم لا لينتحروا كما كنت أظن بل ليقاتلوا .

طال الحديث بيننا وناقشنا اشياء كثيرة ... القناعات النظرية التي توصلنا اليها ... مهمتنا في تلـك المرحلة ، امكانية طرح بديل للتنظيمات السياسية القائمة في الساحة العربية ...

وسألني اذا كنت اوافق على الانضمام اليهم ؟

ارتجف بسرعة ... اوافق ؟ وما هو البديل ؟ استمر في كتابة قصائد القيها في المنتديات يسمعها رجال ملوا أحاديث نسائهم ؟.. ترددها نساء على اسماع عشـاقهن وينتهون جميعا الى الحديث عـن الطقس واخـر الازياء وفضائح الجيران ؟ ما هو البديل ؟

اقول لعصام دون تردد : سآتي معكم . هــل هناك مكان لــي ؟

ــ هناك مكان للجميع .

اغادر القاهرة في اليوم التالي متجهة الى « ارم » . اذهب الى مديري في الصحيفة التي اعمل بها والقي فــي وجهه باستقالتي . ينظر الي ببلاهة ويسألني : اذا كنت حرة ذلك المساء . اغادر مبنى الصحيفة ... اترك خلفي اكوام الكلمات والزملاء الذين يحلمون بزيادة رواتبهم ... اترك خلفي وجهي القديم ، الوجه الذي شوهته الحرب . انطلق في شوارع المدينة امراة اخرى . لقد تحررت مــن ذل آدميتي ... من ضعفي ... من اسطورة الندب التي وظفتها في دمــي .

لقد تحــررت .

اتجه الى المدينة الساحلية حيث امي وابي ، احدث ابي عن رغبتي بالرحيل معهم . يغضب ... يصرخ ... يحطم الاشياء ثم يسقط على مقعده عاجزا ، وانا منكســة الراس الى الارض لا احرك ساكنا .

تذهبين للموت ؟

اقول له : ساعود ، اقولها واقف لاجمع اشيائي ... يلحق بي الى غرفتي بعد ان عاد اليه الهدوء :

ــ واذا لم تعودي ؟

ــ ستكون حياتي قد انتهت كما تنتهي في حادث سيارة تافــه .

لا يجرؤ على ان يحدثني عن شرفه وعذريتي ...

يظل صامتا ... يتأملني بسكينة . يغلق الباب ويخرج ، اواجه الصمت وصلوات أمي الاتية من غرفتها في طـرف البيت الواسع . منذ سنوات لم تغادر فراشها .. منـذ سنوات وهي تكتب لي الرسائل وتصلي لاجلي ... منـذ سنوات وهي تتذكر الزوج الثري الذي فاتني . اتـركها لصلواتها ... اقبلها وامضي دون ان اذكر لها شيئا عن رحيلـي .

اودع المدينة والبحر واشجار الزيزفون ، انظر الـى الوجوه كأنني اراها للمرة الاولى في حياتي ... تبتعد الوجوه التي الفتها وتبتعد السيارة باتجاه آرم . اصلها والليل في اخره ... رطوبة ايلول تغرق الشجر والارصفة وزجـاج المقاهي ... أتجه الى بيتي ، انظر اليه غارقا بالسـأم والثياب والعطور ... افتح خزانة ملابسي واتناول بعضها ... التي بها في حقيبة صغيرة هي زادي لهذه الرحلة . لاول مرة تكون حقيبته دون عطور ولا اشعار ... دون صحف او آلات تصوير . لاذهب فالتقي الارض هناك ... لالتقي الرجال الذين اكتشفوا الطريق الى القدس .

اصل « حران » . يلقاني عصام علـى باب مقـر المنظمة ، يفتح لي ذراعيه . ارمي بنفسي ونتعانق . لقد جمعتنا الحرب من جديد . يصحبني الى دار « ام العبد » مناضلة من مناضلات المنظمة في الخمسين من عمرهـا . امرأة ثورية كاملة ... أتذكرها الان وتوحي لي ذكراهـا بأنبل العواطف . اتذكرها وهي تعمل رسولا للثورة لدى سكان المخيمات في « حران » والمدن الاخرى ... تنتقـل ما بين الاحياء حاملة معها اخطر الاوراق وجميع نشراتنا . تعود في المساء محملة بالادوية والكساء والمال . كانـت

« ام العبد » جريئة اكثر من الجراة ، والكثيرات من افراد تنظيمنا النسائي كن يتجنبن مرافقتها في مهمتها ... علمتني ام العبد معنى الصبر ولغة البسطاء . روت لي تاريخ الهجرة التي تذفت بهم الى غابة الغربة .

— لا أستطيع ان انام يا ام العبد ، احس بالقلق .

— حاولي يا نادية ، سيكون غدك متعبا .

احاول ويهجرني النوم ... يضحك النوم من جفني في ليالي « حران » اعانق الوسادة واطلب من ام العبد ان تحدثني قليلا عن ماضيها ...

(حوصرت القدس وسقطت في ايدي قوات العدو . كنت في زيارة خالتي قريبا من مسجد عمر ... علمنا ان القسم الاخر قد احتل ، ولم يعد باستطاعتي العودة الى هناك فبقيت انتظر وما زلت . في عام ١٩٥٥ عرفت صدفة وعبر رسالة وجهتها امي لنا في الاذاعة ان اخوتي واخواتي قد رحلوا جميعا ... بكت في نهاية الرسالة فاضطر المذيع ان يتمها عنها وختمها بالجملة المعهودة « اطمئنوا وطمنوا »).

— ولماذا اخترت هذه المنظمة ، هل تؤمنين بالماركسية؟

شرحت لي تلك المراة البسيطة النظرية الماركسية بجملتين : الفقراء يقاتلون فليس لديهم ما يخسرونه ، الاغنياء يخافون على اموالهم ... اخترت هذه المنظمة لانهم يتكلمون باسم الفقراء .

ولم يكن لدى ام العبد اية فكرة عن العمل السياسي . كانت تبدو بيننا كامراة تحيا حياة مغامرة تروق لها، مقتنعة تماما ان المقاومة الفلسطينية وان اختلفت طروحها فهي في النهاية على هدف تحرير الارض .

ــ كلهم فلسطينيون يا نادية والهدف واحد .

في صدر أم العبد البسيط النقي القيت همومي واخذت دروسا في الصبر . آتيها تعبة ومرهقة في المساء بعد نهار طويل في المخيم ، فتعمل على تأمين ما يريحني ويساعدني على اعداد النشرات النظرية . اشكو لها الازمات التي تمر بها ، فتفتح لي آفاقا جديدة . اذكر ليلة حوصر رفاقنا في بيت أبراهيم من قبل منظمة فدائية اخرى نتيجة شجار حاد حصل في احدى القواعد . اتيتها راكضة أخبرها بالنبأ . حملت مسدسها وذهبت وحيدة باتجاه بيت ابــراهيم ... لحقت بها وامسكتها من كتفها :

ــ ماذا حصل لك يا أم العبد ، انهم مسلحون وعددهم لا يقل عن خمسة عشر رجلا !.

لم تعر صراخي انتباها ومضــت ... بعد نصــف ساعة تفرق أعضاء الفريق المسلح دون ان تضطر لاطلاق رصــاصة واحدة .

حزنت كثيرا وانا أودعها الى معسكرات الشمـال ... جاء اليوم الذي افترقنا به وآلمني فراقها . لوحت لي بيدها وغابت في العتمة ... لم أعد أراها بعد ذلك ، الــى ان جاءتني في البيت الذي احتجزت به بعد عملية جنيف . قبلتني في جبيني واعطتني كيسا من الزعتر الفلسطيني تعرف انني أحبه . عرفت بعد رحيلي الى « عينتاب » ان « أم العبد » قاتلت في ايلول قتالا شجاعا ، وقد وجدوا جثتها على مدخل مكاتبنا مثخنة بالطعنات . لا أدري اين دفنت ، لكنني كلما تذكرتها في عزبتي شعرت بحسد لانني لم أكن الى جانبها).

الان الخامس من ايلول ١٩٧٧ والساعة تشير الى منتصـــف الليل .

ما ازال مشدودة الى مقعدي في المقهى ، يا وجهك البعيد ويا ليالي الغربة ... يا صدرك الذي ضم اشلائي وبقايا هزيمتي وحزني . يا انت ... يا رجـــلا بحثت في جسده عن النسيان فنفجر في جراحي ... يا رجلا بحثت في عينيه عن وطن الجأ اليه فأعادني الى مدني . يا فرانك يا غربتي ... يا غربتنا معا . انا وانت ماض يعيش ورأسانا تلك الماضي ... انا وانت صرخات رفاق ضمتهم السجون والمقابر فقضينا ايامنا نبحث عن وسيلة ننسى بها عيونهم في ساعات الوداع الاجباري .

يوم التقينـــا ؟

تذكر يوم لقائنا الاول . قاعة المحاضرات في الجامعة تغص بالطلبة القادمين من العالم الثالث . وانت تتحدث عن فلسطين وأميركا اللاتينية وافريقيا . جئت لاستمـــع اليك ... جئت لاراك بعد ان اعادتك السجون الـــى بلاد الترف والزبـــدة . قال لي الاصـــدقاء : انـــك استسلمت لبرجوازيتك وقنعت بذكرى الرفاق السابقين ... عـــدت الى فرنسا لتكتب روايات عن موتهم واستقبلتك السيدات الجميلات بالعطور بينما صرخت معابدهم باسمك بطلا ...

كانوا بحاجة لاسطورة وخلقوا منك حكاية لهم في بلاد انتهت فيها الاساطير ... حولوك الى ما يشبـــه النجم ، ودفعوا بك الى واجهاتهم صنما يعبدونه .

خبير ثوري ... مستشـار لشـــؤون القارة السوداء التي تحترق ...

ولم يدروا انهم يقتلونك ... يدفعون بك الى الزوايا المعتمة حيث تتعفن نسيانا وذكرى .

ارفع راسي في وجهك وانت تشرح تناقضات الثورة في بلادنا ، اقول لك :

ــ دعك من الثورة الفلسطينية فأنت لا تعرفها ...

تجرحك كلماتي . تحاول ان تقول شيئا ... تموت الكلمات في صدرك . ترى وجوهنا في المرايا تلحق بي الى مقهى مجاور للجامعة .

ــ من أنـت ؟

اصمت قليلا ولا اجيبك ... تلح ... ارى في قرارة عينيك رجلا يموت الما . ابتسم قليلا واسألك :

ــ انسيت ؟ لماذا تحاول النسيان ؟

ننطلق معا في باريس ونضحك من ظلمة الليل ... اراك تعيش ماضيك عذابا ... حاضرك عذابا .. والنسيان هـــدفك .

ــ انك لا تتحدث كثيرا عن ماضيك ؟

ــ الماضي ذهب وانتهى ، انا هنا في فرنسا حيـث ولدت ... اكتب لاحب نفسي ... انجب اطفالا لاعيش بهم ... اناضل ضد برجوازيتي .

واظل صامتة . اعرف جيدا انك تتمزق بين ولائـك لرفاقك القدماء وسحر برجوازيتك . اعرف جيدا انـك اخترت الراحة والتنازل ... اعرف جيدا انـك تحيا بين بيوتك الثلاثة ... ونادرا ما تضحك .

ــ ولكنك تلعب لعبة البــرجوازية نفسهــا ، ربما أصبحت بعد أيام وزيرا للثقافة !

ــ اذا نجح اليسار في فرنسا . انني لم اخن رفاقي ولكن لكل بلد ظروفه .

اظل صامتة . لماذا اتهمك ؟ لماذا اطعنك بخناجر شكي وضعفي ؟ انا مثلك قلعة نسيان . انا مثلك أبحث عــن وسيلة ما أبرر بها هربي وحياتي هنا بعيداً عن « عينتاب ».

فرانك ، لماذا اتذكر كل هذا ؟ الليل في اخره يا فرانك والريح تعصف بالمدينة . وانا هنا في زاوية مقهى ، انتظر خلاصا ما . ارى وجه « ام العبد » على زجاج المقهى ... اسمع صوتها وانا اتــرك « حران » الــى معســكرات التدريــب .

« نادية ، أنت اول مقاتلة ، فعليك المحافظــة على حياتــك » .

وبقيت حياتي لتقودني الى التسكع على أرصفة المنفى وانتهت حياتها ... تماما كما بقيت حياتك وانتهــت حياة رفيقك « المنصف » . كلانا وجه لعملة واحدة ... يا سامي من صمتنا ، ويا تفاهة الايام التي نحيا !

« سأرحل الى معسكرات التدريــب يا عصام ... سأقاتل » .

يجتمع المجلس العسكــري ليتخذ قــراره في قضيــة التحاقي بالقواعد ... يطول النقاش بينهم . كيف يمكن لامرأة أن تعيش وسط مقاتلين ؟ ولكنني أصر بشــدة ، الامر

الذي جعلهم يوافقون . « ستكون تجربتها عاملا مشجعا للاخريات . لماذا لا ؟ » هكذا انهى عصام النقاش وانتقلت لأحيا حياة جديدة . انتقلت الى الخيام والسلاح تاركة ورائي كل تناقضات الاحزاب السياسية وجدلها العقيم ... تاركة ورائي رفاقا لي سابقين تعفنوا في زوايا السجون ، دون ان تجرؤ أحزابهم السياسية على اتخاذ موقف ينقلهم الى الساحات الفعلية للنضال . اقراك كل ليلة واشعل ضميري بك ... اقرأ رفيقك « المنصف » الذي سقط في وسط الغابات ... أعيد تاريخ الثورات والرجال الذين صنعوا التاريخ . نمر بالفيتنام وكوبا وبوليفيا. نبحث في تراثهم عن دليل لنا . أشرح لرفاقي خصوصية ثورتنا وصعوباتها . يستفيق النهار على اصواتنا ويمضي ليبحث عن جذور تربطنا الى الارض .

هل خنقت الثورة ؟

اليوم الخامس من ايلول عام ١٩٧٧ . « عينتاب » ليست نهاية العالم، وذاكرة التاريخ تتسع للمدن والشهداء والمشردين . أتنفس حرارة المقهى وأصوات السكارى . افكر ان الجأ الى احد الاصدقاء فأحكي له شيئا عما يعذب الجسد ويشل قدرته على المضي الى اقبية الهدوء والاستسلام .

الاصدقاء رحلوا عن باريس . فأين انت « يا باهي » لتقوم بمراسيم دفني على طريقتك ؟ أين انت يا « محمد » ايها السفير الحاقد على كل شيء ... اين انتم يا مجموعة الصعاليك المشردين ؟ تعالوا في هذه اللحظة وخلصوني من الذكرى ، والاغتراب ، ووجهه المسافر .

(يستقبلني قائد المعسكر بدهشة واستغراب ...

اتيت الينا اخيرا ؟ لماذا تختارين الخطر والموت ؟.. كنت اظنك في الاربعين ، قبيحة ومعقدة . اضحك ، أرد اليه اسئلته . ما رايك ان نبدأ في تنظيم اعمالنا ؟ على الحدود الجنوبية لبلد عربي قريب من أرض المعركة كان معسكرنا مجموعة مقاتلين تلون الشمس وجوههم ... ينتظرون الليل بفرح ... يتحدثون عن الارض والتحرير والشهادة ... كنا نجتمع في حلقات صغيرة ونتبادل النظر . نستمع الى فرحان يروي ذكرياته عن ايام المخيم ... نقرأ اشعار محمود درويش وسميح القاسم ... نضحك لنكتة عابرة يطلقها سعيد ... نعيد بعض الصفحات من مذكرات تشي غيفارا ليلة الحصار المعروف . وعندما ينتصف الليل وتصل النجوم الى الطرف الاخر من السماء نحمل اسلحتنا وننتشر في السهل . نرصد تحركات العدو على الطرف الاخر ... نتحاشى اضواءه ثم ننفخ على ايدينا لنمنحها الدفء . تمر الايام الاولى بصعوبة ، اشعر الشمس عدوا يرسل الى ذاكرتي بنيرانه . ابحث عن الاحلام الثورية ... ابحث عن الصور الملونة لمقاتلين تخيلتهم لا ياكلون ولا ينامون ولا يحبون النساء ... أبحث عن رجال يقفزون جدرانا عالية دون أن تكسر أيديهم واعناقهم ، ألقى رجالا عاديين يضحكون ويأكلون ويخافون احيانا . احاول ان اقرب المسافة واعقد صلحا بين الحلم والخيال .

ابدا التدرب الحقيقي على استعمال السلاح . لاول مرة امسك بيدي بندقية . استعرض كل الانواع ذات المنظار التلسكوبي والفرنسية القديمة التي احدثت في كتفي

اثارا لم تمح الى الان . اما التشيكية فقد كانت افضلها . يمر شهران على وجودي . انتقل الى استعمال الرشاشات من نوع كلاشينكوف ، كارلو ، تومبسون ، ومسدسات ٦ ملم وبندقيات قديمة من عيار ١٦ ملم .

ثلاثة اشهر ، اربعة ، وانا افتقد الصبر والجلد والمثابرة التي يتطلبها التدريب . افتقد ثقتهم بي كثيرا . امراة واتكلم لغة غير لغتهم . اتحدث عن النظريات ويفضلون ان يتكلموا عن ماضيهم في المدن العربية ... ثقافتهم النظرية تكاد تكون معدومة . ومهمتي تقتضي ايجادها ... مهمتي تقتضي أيجاد لغة تواصل بيننا هي الاشق بالنسبة لـي . يأتيني « تشي » في لحظات الغياب والوحدة . يذكرني بأن علي ان اجد الجسور التي تربطني بهم . ابحر في وجه « تشي » الذي يرافقني ابدا . أرى وجوه رفاقي في ساعات الصبح ابطالا ينتظرون لحظة الفعل .

(تمضي الايام بطيئة ... سريعة ... بطيئة مرة اخرى ، يستبدل الفريق قائد المعسكر بمقاتل جديد . يأتي « ابو مشهور » ليشغل مهمة توجيهنا . اصغرنا سنا واكثرنا جراة ... نتعارف . اكتشف مع مرور الزمن شجاعته الخارقة . كان قد كرس نفسه للقضية الفلسطينية واستحوذته كليا . الرجل الكامل ، اليوم اذ ترعبني الشوارع المظلمة والغرف الباردة واوروبا المثلجة والرجال المتقاعدون عن الفعل الثوري . اذكرك بمرارة . أعطيتني دروسا في النظام والتقيد بالاوامر دون ان تقول لي كلمة واحدة .

نتحدث عن « الطيرة » ، القرية التي ولد ابو مشهور فوق ترابها . أين تقع « الطيرة » ؟ كم انت جاهلة يا نادية! تقع الطيرة حيث تقــع فلسطين ... لا يمكــن ان تكون « الطيرة » الا في فلسطين هناك مات الرجل الكبير . هكذا كان يقول ابو مشهور ... من الرجل الكبير ؟ « هناك مات ابي وكان في جنازته ثلاثة أشخاص : شيخ الجامع ، واخي ، وحفار القبور . دفن تحت صــوت قنابل ١٩٤٨ وتركنا في هذا العالــم » .

نتحدث في لحظات اخرى عن « المخيم » ووكالــة غوث اللاجئين ... لماذا سموها وكالة غوث اللاجئين لماذا؟ يصمت عالم الدم واللحم . يصمت « أبو مشهور » . تستيقظ موجات الاثير الاسمر في تلك الساعات من ليل السهــول الجنونية لاحدى الدول ... تدق الساعة معلنة انتصــاف الليل . يلذ لي فرحي بالانتماء لهم . أحب احاديثه . احس فيها رنة غامضة كالنحيب المكتوم . كسر خفي تكاد الحروف تتمزق فيه . تدق الساعة ... نأوي الى المعسكر . الموت يحدق بنا على الطرف الاخر ... اسلحتنا في ايدينا وننتظر.

تمضي الايام وانا تحت الشمس والليل واحاديث ابو مشهور . يتعتق مصيري أمراة ، شجرة ، قديسة . امرأة ملكت جسدها وروحها وموتها ، تنتهي اسطورة الصيف ويبدأ الليل يهب في الدروب كريح قاسية توقظ في داخلنا الرغبة بالدفء . متى ندخل ساحة الموت ؟ يضحك « ابو مشهور » ... يبدو أنك تضيقين بجلدك يا نادية . الايام اتية والمعركة طويلة . حزم الاعشاب البرية تنطرح تحت أجسادنا ونتمانق

مع الارض . نشم بها رائحة المطر والايام التي تأتـــي .
تغرب المدن في ذاكرتنا وتبتعـــد ، ستة اشهر ولم نشـــم
رائحة المدن ... لم نشم رائحة اجسادنا في رفاهها المترف.
نقاوم ونتمرد دون ان نسمح لمغرياتها بالتسلل الى رؤوسنا،
ارادتنا ، عقلنا ، وما يشغل تلك العقول المتفتحة على عالم
رائع لا نريد لانفسنا ان نغيره . نحتفظ بوجوهنا ونظراتنا .
تعبر ابتسامتنا مع اللحظات الاولى لاشتهاء الجسد وتتبدد
في ذاكرة اللحظـــة .

ذات ليلة يأتي عصام ، ينتحي بـــي جانبا ويبلغني :
« أن علي أن أغير حياتي » . أتساءل باستغراب وخوف :
ماذا يعني ذلك ؟ يظل صامتا ... يأمرني ان أهيء نفسي
للرحيل . اجمع اشيائي دون تردد ، فالثورة لا تقبل الرفض
ولا التردد . المح وجه « ابو مشهـــور » الى جانبـــي في
سيارة « الجيب العسكرية » وهي تنحدر نحو الجنوب .
المعسكر خلفنا بأضوائه البسيطة جمرة انتظار . اهمس في
اذنه : هـــل تعرف الى اين نحـــن ماضيان ؟ لا أدري .
يجيبني ، وعصام صامت . السائق يدخن سيجارته بهدوء
وبعض النسمـــات البـــاردة لسهول الجنـــوب تتسرب الى
اجسادنا فنرتجف ... تستمر السيارة في طريقها والصمت
على وجوهنا جميعا . ندخل حدود « حـــران » يستوقفنا
ضابط الامن ... يطلب الينا بسأم ان نبرز هوياتنا . لقد
تعب من عبور المقاتلين . يرد الينا البطاقات وينشق فمه
عبارة : في المرة القادمة عليكم باحضار هوياتكم الحقيقية .
يبتسم « ابو مشهور » . ابتسم انا . هل لنا من هويات
حقيقية غير هذه ؟ لقد انتهينا الى حقيقتنا بعد ان أمضينا
شطرا من عمرنا دون هويات ولا حقيقة . نستمر باتجاه

الجنوب تاركين الطريق العام ... مبحرين في غابات الزيتون والسنديان . قريبا من أضواء تنبعث من خلف الهضبة ، تتوقف السيارة ونهبط ثلاثتنا . يسبقنا عصام بخطوات واسعة كان الليل جزءا منها . نلحق به ... صوت من بعيد يسألنا كلمة السر . اسمع عصام مجيبا : جنيف .

تدهشني اجابته ، أتخيل انها احدى « سحباته » القديمة أيام مقهى المتحف الحربي . نعبر الى الداخل ... الى خيمة صغيرة مضاءة بلمبة غاز . نفاجأ بوجوه رجال اخرين ينتظرون . يعرفنا عصام : نايف وفرحان ، نادية و « ابو مشهور » . وجوه رافقتني فيما بعد في اكثر العمليات التي قمت بها ... نفترش تراب الخيمة وننتظر . لا بد وان هناك امرا يدعو الى هذا الاجتماع الطارىء . يتكلم عصام :

— الرفيقة نادية ، مسؤولة الاعلام في معسكر الشهيد الحسيني . شاعرة ثورية وتجيد الانكليزية .

— الرفيق « أبو مشهور » من افضل مقاتلينا،لقد تدرب جيدا في كوبا على حرب المدن .

— الرفيق نايف ، ضابط سابق في احد الجيوش العربية ، قائد طيارة ميغ « ١٧ » .

— خرصان خبير متفجرات وكيمائي سابق .

نحدق في وجوه بعضنا البعض محاولين الذهاب الى أبعد من التعريفات ... ننتظر ان ينطق عصام بالاسباب التي جعلته يفكر باستدعائنا .

— لقد قررت القيادة توسيع بساحة المعركة ... تعريف

العالم اجمع بقضيتنا ، تعريف العالم بأننا هنا نقاتل وننتظر العـــودة .

كان الصمت على رؤوسنا جميعا كطير ليلي . فهمت ان الاخرين مثلي لا يدرون شيئا عن هذا الاجتماع المفاجىء . توقف عصام ليسترد انفاسه ثم عاد للحديث من جديد :

ــ لقد قررت القيادة تكوين نواة للقيام بعمليات فـــي الخـــارج .

قاطعتـــه مستفسرة :

ــ ماذا تعني بذلك ؟

اجـــاب :

ــ اوروبا الغربية واميركا .

هاجمتني مباشرة اخبار التصفيات الجسدية التي قامت بها بعض الحركات الثورية في اميركا اللاتينية على الساحة الاوروبية ... تصفيـــة الحسابـــات ... صراع بعض المخابرات الغربية مع بقايا النازية ، الملاحقة التي لم تهدأ حتى اغتالت تروتسكي . خفت ان يكون الرفاق قد دخلوا في سلسلة اعمال من هذا النوع ، فعدت للتساؤل :

ــ وماذا تعني بالعمليات الخارجية ؟

ــ خطف الطائرات ، تفجير بعض الشركات الكبرى التي تزود اسرائيل بالاسلحة والمعدات ، نسف الشركـــات الاميركية في المنطقة .

بدت وجوهنا جامدة . مرت الدقائق بطيئة .. اتجه الرفاق بعيونهم الي منتظرين ان آخذ المبادرة بالحديث ... كنت غارقة بالتفكير . بدت لي الفكرة ضربا من الجنـــون ،

لا سيما وان الثورة لم تثبت مواقعها على الساحة العربية . وحتى تلك اللحظة كانت عملياتنا في الارض المحتلة ما تـزال ضئيلـة .

يسأل ابو « مشهور » :

ــ ما هو الهدف الاستراتيجي من مثل هذه العمليات؟

يجيـب عصام :

ــ التعريف بوجودنا هنا ، انت تعرف جيدا ان الانظمة الرجعية تستطيع القضاء علينا في اية لحظـة عندما تتطلب مصلحتها ذلك . ثم هناك مسالة ايقاف الهجرة الى الارض المحتلـة .

يبدو وجه ابو مشهـور محمـلا بالرفض والاسئلة . يقول لعصام بحزم :

ــ هذا اسلوب خاطىء ، على الثورة ان تثبت اقدامها هنا ... هنا في الساحات العربية . الاعلام لا يمكن له ان يحسم المعركـة .

يسالني عصام رايي... ينتظر... انتظر انا أن تتحرر المراة ــ الشجرة في داخلي من موتها وخوفها .

ــ علينا توسيع ساحة المعركة ، علينا ان نعزز عملياتنا الخارجية بعملات في الداخـل . انا لست ضد العمليات الخارجية من حيث المبدا .

يستمر النقاش حتى الصباح وينتهي بناالامر الى قبول قرار القيادة العسكرية بالاتجاه الى جنيف لاتمام اول عملية .

يسيطر الوجوم على وجه « ابو مشهور » وينتقـل بعينيه الى اللمبة الغازية يراقب تذبذب الشعلة الصفراء ، بينما اخذ بيده عودا وبدا ينكث الارض امامه كحصان قلق .

كانت الاوامر واضحة ، ونقاش الليلة الماضية يحتم علينا ان نغير نمط حياتنا واسلوب تدريبنا . ننتقل الى معسكر خاص ونبدأ تدريبا شاقا ومرهقا على حرب المدن . نمضي الساعات الاولى من النهار ونحن نطلق النار على اهداف قريبة ... نركز على استعمال قدراتنا العصبية ... نحاول ان ندرس خارطة اوروبا جيداً . مطاراتها ... مدنها ... شروط مناخها ، وفي المساء اعود الى خيمتي لمراجعة بعض الدروس في اللغة الانكليزية .

توصلت بعد ايام من التدريب الى اتقان الرمي البعيد المدى والقريب ، الامر الذي ادهش كافة الرفاق الذين كانوا معي ورأقبوا الصعوبات التي مررت بها في البداية . هذه طبيعتي ارفض كل جديد في البداية لاقبله في النهاية) .

تذكر فرانك

مرة ، وقعت عيناي عندك في البيت على مسدس ٦ ملم ... حملته بيدي وفحصته بينما كنت ترقبني صامتا ... اعدته الى مكانه في درج الطاولة والتفت اليك ... كنت تتأمل حركة يدي بفضول غريب . فهمت ان هناك خاطرا ما براسك في تلك اللحظة . ضحكت وانا اقول لك :

— انني اخاف رؤية السلاح .

اجبتني دون أن تبتسم .

— لا يبدو عليك هذا . ان طريقة امساكك بالمسدس تدل على انك تدربت فعلا على استعماله .

لم اعلق على حديثك ابدا ، خفت ان اكشف اوراقي والقي بجواز سفري المزور الذي يحمل اسم امي الحقيقية وابي الحقيقي واستنجد بنادية التي كنت . من الصعب

ان يخفي مقاتل وجهه عن مقاتل اخر . نخضع لشروط واحدة تطبعنا في كلامنا واسلوب تفكيرنا وطريقة سيرنا .

نعم يا فرانك ، عرفت استعمـــال السلاح في المعسكر الضائع الان تحت الشمس .

وهناك قالوا لي : ان سلاح المقاتل ثروته واذا فقده فان حياته ستكون دائما في خطر .

وهناك قالوا لي : المسدس من اهم الاسلحة في حرب المدن . خفيف ويمكن اخفاؤه بسهولة .

وهناك قلت لهم : اكره ان اقتل في النهار ... فـــي وضح الشمس ... اكره أن ارى الموت واعيشه ؛ حـــرب الريف والغابات اكثر انسانية واحتمالا ... في المدن حيث الوجوه بالوجوه ... حيـــث الانسان المرعب والانســـان الآلهة،نطلق الرصاص على مدى متر او مترين او ثلاثة ونعرف اننا اما مقتولون او قاتلون ، اما في الريف ففرصة ان ننجو من الموت كبيرة .

في المعسكر وتشرين جنية مرعبـــــة .. المطر يغسل اشجار السنديان ، لقد بدا الشتاء والعملية ستنفذ خلال ايام ... تعرفت بشكل افضل على ابو مشهور . نستيقظ في السادسة صباحا ونجري التمارين الرياضية ... نسير على الاقدام مسافات طويلة ... نقطع الحشيش القريب مـــن ابواب المعسكر ... نعيد تركيب اسلحتنا وفكها . ونتحدث عن كل شيء .

يحكي لي عن عدم اقتناعه بجدوى العملية واجيبــــــه دائما : « عليك انتفكر ابعد من ذلك. نحن بحاجة الى الاعلان عن انفسنا » . يحكي لي عن ابيه الذي ذبح امام عيونهم في

قرية « الطيرة » . عن اخيه الذي فقد عينه في حرب ١٩٤٨ .
عن مجموع الايام التي عاشها في مخيم اللاجئين . اما أنا ، فلم
يكن لدي ما اقوله له . فأبي يحيـــا ولم اعرف الخيام او
التشرد . بل عرفت الخطب الطويلة والرنانة عن الـــدم
الازرق . الاصفر الاحمر .

لو حدثت « ابو مشهور » يومذاك عن خطب ابي لضحك
كثيرا وظل يرددها كمادة تسلية لشهور ... لو قلت له شيئا
عن الزوج الغني الذي ماتت امي حزنا عليه لاعتبر ذلـــك
نكتة الموسم القادم وسماني (ارملة الثروة) . لم اقل شيئا
عنحياتيالماضية واعتبرت ان ذلك قضية محسوسة .

نتحدث عن الارض كثيرا ... نتحـــدث عن الماضي
والحاضر والمستقبل . من الصعب انيتحدث الفلسطيني عن
الارض دون الماضـــي ، ومـــن الصعـــب ان يتجـــه
الى المستقبل دون الارض . يأتيني ذات مساء حاملا في يده
كتاب « دوبريه » « الثورة في الثورة » : نمضي الليل معا في
قرأءته ... نتوقف قليلا عندبعض المقاطع التي تحدد مهـــام
« البؤرة الثورية » لقد اخطأ دوبريه كثيراً بتعميمه التجربـــة
الكوبية وجعلها قاعدة بالرغم من الخصوصيـــة المطلقة التي
تحكمها . اقول هذا لصديقي ويختلف معي كثيرا حول هـــذه
النقطـــة .

يجيبني وعيناه تلمعان في ظلام الليل :

ـــ خطأ دوبريه ، انـــه اعطى اهمية كبيرة للطليعة
المثقفة ، وميزته آخراج المبادرة من يد الاحزاب السياسية
المتعفنة . لقد نسي ان يؤكد على اهمية تحالفات الطليعة .

ـــ ربما كان لدوبريه عذره في التركيز على دور الطليعة المثقفة . فهو مثقف لم يستطع ان يمر بسهولة الــى صحبة الثوار . لقد عاش لفترة مرفوضا منهم .

اصمت قليلا ... اتذكر الجــــدل العقيم الذي كنا نخوضه في أروقة الجامعة وصالات اتحاد الكتاب . اقــول لصديقـــي :

ـــ تعرف انني لا اثق كثيرا بالمثقفين ، لكنني اجد صعوبة كبيرة في فهم لغة المناضلين البسطاء . هذا الشيء اكتشفته هنا في المعسكر . قبل ذلك كنت احلم في الجامعة ، في اتحاد الكتاب، كنت في حالة تقزز من الوجوه التي تشبهني ، مثيلاتي، نظرا لما تبدو عليه من اكتفاء ولا وعي وأيمان بالقدرة الكليـــة للتصور ، ثم عرفتكم وانتم اكثر قابلية للحياة .

ـــ تفتقدين جذورك ولا تستطيعـــين أن تجدي جذورا جديدة لك في وسط اخر ... هذا هو الاغتراب . او بالاحرى الاغراب . نحن نوع أخر من البشر، لكن لنا نقائصنا ومزايانا، لا سيما عدم الاكتراث المطبوع والمكتسب بكل ما لا يخــدم مصالح الثورة « المباشرة » . ولما كانت الموسيقى والجنس وعيون النساء ورائحة الياسمين وفظاظات الحلم غير ذات نفع للعمل الثوري ، فانت مغتربة وستبقين ممزقة .

لقد وضع « ابو مشهور » يده على الجرح .

ـــ ولكنكم كنتم لي حتى الان وستكونون اخوتي وليس لي من اسرة أخرى . معكم تعــودت اشياء الحياة اليومية فأصبحت محتملة ، الضحك المحتمل مع الالم ، هذا الضحك غير القابل للاحتمال بلا ايمان بشيء هناك فيما وراء الحياة واللحظة .

ينتشر الليل في دمه ودمي ... تصفر الريح في السهول

الجنوبية لاحدى الدول العربية ، الشمالية لدولة اخـــرى مجاورة ، تصفر الريح ويقترب الليل من النهاية . نحن شجرتا سنديان في طرف الغابة . ننتظر الشمس والمطر والرياح ، وفي انتظار كل شيء نمد اغصانتنـــا ونتعانـق ... نقرب رؤوسنا كالقطط الضالة واقول له :

ـ غدا نرحل الى جنيف ، هل انت مستعد لذلك ؟

ـ ماذا تقصدين بالاستعداد ؟.. لقد تدربت جيدا .

ـ لا ، اقصد هل اقتنعت بجدوى العملية ؟ لقد كنت معارضا لفكرة في البداية .

ـ ما زلت غير قانع بنتائجها ، لكنني اعرف ان علي ان انفذ اوامر القيادة مع وعي كامل انهناك اوامر وتعليمـــات خاطئة ، وقابلية القيادة للخطأ .. ماخوذة بعين الاعتبار ، ولن انسى ابدا حتى ولو مت اثناء هذه العملية : ان القادة اناس اخرون ، لهم تاريخهم ولي تاريخي الذي لا يتساوى بالضرورة مع تاريخهم .

ينتشر الليل في دمنا صمتا ويبدو النهار من وراء الهضبة المجاورة . يجر الليل نفسه من جسدي وجسد العتمة . القي نظرة حولي على المعسكر وعلى وجه رفيقي . قد اعود ولا اعود، ولكن الموت كف عن ان يرهبني منذ فترة. منذ اكتشفت انني لا اطمح ان اكون واسطة بين ابي وابنائي . تأتينـــا « سيارة جيب » ، نركبها دون أمتعة ... لا متاع لدى المقاتل ... لا حقائب . وأحيانا، وهذا الاكثر مرارة ، ليس مـــن حـــب .

فرانـــك !

الليل في اخره ، مشدودة انا الى مقعدي في زاوية المقهى على جسدي آثار الريح وصقيع هذه المدينـــة الرهيبة وفي راسي انت ... وجوه رفاقي جميعا ... عينتاب التي تحترق وتشتعل نورا . كم أنا بحاجة لكفيك ... لعينيك...لصدرك كم انا بحاجة اليك يا بقايا الثورات والسجون وقلاع النسيان، كلنا نحاول ان ننسى ولكنني متذ الامس اقاتل النسيان في جسدي وفي راسي ... لقد استيقظت المراة ـــ الشجرة ولم بعد من خطر ... علي بالمواجهة ... علي بالمواجهة .

اتذكر الان لحظة وصولنا الى مطار جنيف . هي المرة الاولى ألتي تطأ فيها تدماي صقيع اوروبا العجوز ... وجه « ابو مشهور » الى جانبي وعيناه ـ كما عهدتهما ـــ محملتان بالاسئلة . تبدو اسئلته جملا كبيرة تمتد على ذاكرة الزمن .

الثلج يغطي وجه جنيف ... أراها من نافذة الطائـــرة بيضاء دون ملامح . تقترب الطائرة من مدرج الهبوط ... ننتقل عبر الممرات المضاءة الى حاجز البوليس ، نمد جوازات سفرنا الاميركية وننتظر ، دقائق ونعبر الى صالة الجمارك . تنتهي الاشياء بسرعة . لم نجد صعوبة كبيرة في دخـــول سويسرا . نعبر الى صالة الاستقبال ونلتقي بخوفنا وترددنا . نشعر أننا ننتظر الحرية ... نمد يدنا الى الحرية بعد زمن.

المعلومات التي زودت بها تقتضي مني التوجه الى فندق « ريتنر » في الرقم « ٢٣ من شارع دنفير روشرو » . هناك سالتقي رفيقا آخر قادما من المانيا مهمته ترتيب اقامتنا فـــي جنيـــف .

نترك صالة المطار بسرعة ...عيناي لاتكادان تستقران على الرؤوس التي تمر بنا ... لم يداهمني اي احساس بلذة

اختراق مدينة جديدة . انا التي تعـــودت ان تمنحها المدن الرغبة بالانعتاق والاكتشاف والمغامرة ، وجدت نفسي فـــي جنيف احسب الثواني واعيد ترتيبها .يقترب مني «ابومشهور» قليلا ويهمس في اذني : « عليك ان لا تنسي انك زوجتي كما ينص الدور » ، اضحك ، حبات مطر خفيفة تغسل شعري . نصعد معا احدى سيارات الاجرة ... نتجه الى العنوان المحدد لنا . قريبا من بحيرة « ليما » ، في الطرف الغربي من جنيف ، يقع فندق « ريتز » ... يتوضع ما بين نصب الجندي المجهول والطريق الذي يؤدي الى « لوزان » ، يطل علـــى البحيرة التي تحولت الى صقيع بفعل الشتاء .

تتوقف السيارة امام الفندق ، يقول لنا السائق بفرنسية مشوبة بلكنة المانية ، أيطالية ، مالطية ، لم اعد اذكر .

ــ الفندق هنا ، أنتظرا قليلا حتى اساعدكما على انزال الحقائـــب .

اترك « ابو مشهور » معه واعبر الى الصالة الداخلية. تلفحني حرارة المكان ... احس شيئا من الامان ... الساعة تشير الى الثامنة والنصف مساء ، وموعدنا مع الرفيق القادم من المانيا في التاسعة ، نصف ساعة فقط لابدل ثيابي واغسل وجهي واستريح.أنتظر فيقاعة الاستقبال دخول«أبومشهور» نتجه الى عامل الاستقبال ونطلب منه مفتاح الغرفة التـــي حجزت باسمينا . نتناولها مع ظرف قال لنا العامل انه قد وضع باسمنا قبل نصف ساعة فقط .

نتجه الى المصعد ... يتبعنا عامـــــل الفندق حاملا حقائبنا ... غارقا في ثرثرة يبدو انه قد تعودها منذ زمن ...

منذ بدأت البحيرة تخضع لاضطهاد ريح الشتاء . منذ بـــدا الليل في جنيف يعيش اكثر من نهارها .

ـــ كان الثلج غزيرا هذا العام ، خسارة انكما وصلتما فـــي هـــذه الايـــام القارســـة . ستكـــون اجمـــل فـــي الربيـــــع ، البحـــيرة متجمـــــدة منـــــذ أيـــــام . اوه ، لم يبق من بط بري ، ستعود مـــن جديد لاستقطاب اسراب الحمام المهاجر الىالسهول الايطالية .

كان يثرثر بالفرنسية ، وكنت احاول ان افهمه انني اشاركه الحديث . نصل الطابق الخامس حيث غرفتنا ... نعبر الممرات الطويلة والمدفأة جيدا . نبلغ الغرفة . غرفـــة واسعة وجميلة . تطل نافذتها على بحيرة « ليما » وتكشف جبال الالب السويسرية بارتفاعها المنحدر نحو الســهـــــول الفرنسية . يشرح لنا العامل كيفية استعمال الهاتف ، الزر الكهربائي لطلب بعض الحاجيات ، الحمام ، التواليت . كل شـــيء .

يتركنا ويمضي ، اخرج الظـــــرف الذي وجدته مع المفاتيح ... أفضه ... كلمة من رفيقنا القادم من المانيـــا يخبرنا فيها عن اضطراره لالغاء موعده معنا هذا المساء .

اشعر بشيء من القلق ... احاول ان اخفي ذلك عن رفيقي . اتساءل : ربما حصل شيء ما يخل بخطتنا ... اتجه الى الحمام لاغسل وجهي من اثر السفر المرهق الذي عانيته ما بين عينتاب وجنيف . يرن الهاتف فأسرع اليه . رفيقنا القادم من المانيا يطلـــــب الينا ملاقاته في التاسعة والنصف . نرتدي ثيابنابسرعة دون تبادل اية كلمة ، ونتجه

الى المطعم الذي يقع على بعد ثلاثمائة متر تقريبا من فندقنا . مطعم أيطالي على ما اعتقد . على ضوء الشموع الخافتة التي يعشق السويسريون استبدال اضوائهم بها نتحدث بالانكليزية عن رحلتنا ، يخبرنا الرفيق : ان موعد العملية قد يقدم يوما او يومين نظرا لاضراب ستقوم به شركة الطيران البريطانية ، الامر الذي يجعل شركة « العال » تزيد عدد رحلاتها الى الشرق .

احدق في وجهي رفيقي ... وجهان ملوحان بالشمس لشابين لم يبدآ الخامسة والعشرين بعد . تختفي امامي الحدود والمدن ووجوه الرجال ... اشعر برغبة لا تقاوم في طي الزمن والانتهاء من مهمتنا في أسرع وقت ... اتذكر وجه عصام بعينيه الغائرتين وصوته الاتي من المخيمات الفلسطينية:

« اننا محاصرون ، القضاء علينا لن يكلفهم كثيراً ، لكننا سنخسر وجودنا » .

« المخيمات التي تحولت الى قواعد شعبية للثورة ومخازن للسلاح ستعيش طويلا بانتظار ان نفتح لها جسورا تعبر عليها الى البيوت التي لفظتها ذات يوم » .

اتذكر يوم الخامس من حزيران... الهزيمة، الخيبة... الخطب ، والحزب الذي كنت انتمي اليه ... الحزب الذي رباني واثقل راسي بالحكايا العقيمة ... الطبقة العاملة ... النضال النظري ... العدالة .

يوم ودعتهم « مهاجرة » كطيور الصيف وجسدي ينزف الما وخيبة قال لي الامين العام : « عبثا حاولنا ان نجعل منك مناضلة حزبية جيدة » .

اجبته والنيران تجتاح راسي ودمي واعصابي :

« لكنني كنت بينكم بقرة طيبة غبية ... غبية جداً . ستعيشون دهرا اخر لتفتحوا عيونكم على الواقع الذي ولدته الحرب . المعركة الان قومية ، ومع عدو يجهد للقضاء علينا . لنلجأ الى السلاح .

واذكر انه اتكأ بعجز على مقولة لينين في كتابه « الدروس المستخلفة من حركة موسكو ـ ١٩١٦ » : « يجب عدم اللجوء الى السلاح » .

وذكرته بالجزء الثاني من المقولة :

« بالعكس ، عليكم باللجوء له بشكل اكثر جدية وحيوية، ضمن تصور أكثر حماسا . عليكم أن تشرحوا للجماهير اللاجدوى من اللجوء الى الاضرابات السلمية ، بل ضرورة حرب متطرفة وعنيفة وذلك كهدف مباشر للنضال المستقبلي . واذا ما جهلتم ذلك فكأنكم تغشون انفسكم وتغشونها » .

قلت له : « راجع الكتاب جيدا ايها الرفيق ، لقد جاء الوقت الذي نتحدث فيه عن الصلاة والسكارى » .

انظر الى وجه رفيقي ، الوجهان فلسطينيان ، الوجهان ينتميان الى شعب ادرك بالفطرة ، وبعد ايام من سقوط الاقنعة المزيفة لاحزاب سياسية ، حرقت ايامها في الكتب وانتظار رنين أجراس تأتيها من هنا وهناك تحدد لهانوعية حركتها ، ان السلاح هو الحل .

تستيقظ المراة في داخلي ... تستيقظ امراة طفلة ترتعش في ليالي البرد الذي يقاوم دفء المتوسط وصدر الجبال القريبة منه ... اتذكر المتوسط امامي وابي . يحدق بي رفيقاي ويضحكان .

ــ اين انت يا نادية ؟ لقد ذهبت بعيدا عنا .

ــ كم اشعر بضرورة الثورة في البلدانالتي تركتها !

ــ لم تكتشفي جديدا .

قال هذا ابو مشهور وتابع حديثه مع رفيقنا الاخر .

اتذكرك انت ... اشعل الرأس بك ، كنت قد أدمنت قراءتك وقراءة صاحبك . ومحاولة ان اكتشف واقعي على ضوء تجربتكما في الغابات البعيدة ، كيف استطعت ان تهرب بجلدك من صقيع المدن الاوروبية ، كيف ؟.

احس الليل وثلوجه وشموع البحيرات ... النساء الجميلات يملأن المكان ... يفوح الدفء من كل شيء ... الشك تحول الى يقين في رأسي حول جدوى العملية التي سنقوم بها أنا ورفاقي . لماذا لانقلق راحة هؤلاء المستسلمين لترفهم ، لماذا ؟ نهزهم . ليمطر الليل دما على اسفلت شوارعهم النظيفة ... ليسمعوا ان هناك من يجوع ويتشرد . كل شيء حولي يبدو كدامغ مهم ومشجع لان ابدأ ... ربما من اي مكان في العالم .

الليل في جنيف ليل اخر لرجل وامرأة جاءا باحثين عن هويتهما ... عن شعب لهما ينزف حرقة .

اقرب وجهي من وجه « ابو مشهور » وامسح انفه بأنفي ... اضحك بشيء من الفرح . تمتد بي الذاكرة الى الايام الماضية . لو تزوجت ذلك الثري المترف لكنت الان آلة تفريخ ممتازة ... لو تزوجت ذلك المترف لكنت الان اطوف اوروبا مع امواله وكرشه واسنانه الصفراء دون هدف

سوى شراء بعض الاثواب الجميلة من شوارع باريس ولندن.

ما انبل أن يعيش الانسان من اجل قضية ! علينا ان نخاطر بجلدنا لننقذ حياتنا. انفقت ايامي في الماضي احتمي خلف الكتب والاهل والنظريات والصداقات والاتصالات والعادات. احتميت كثيرا ودللتني الثقافة . هذا الهدير المنبعث من اعماق العصور . كنت اخشى ان اموت لانني اخشى ان اعيش . والان لا يبدو لي الموت موتا : انه مخاطرة جميلة تخاض ، ابدية لا مبالية ، مخاطرة امكانية الخسارة التي بدونها ليس ثمة ما يربح قط . اشعر انني شجرة تمتد فروعها الى السماء ... تحرك ناقلة ظلها وفرحها وحزنها اينما اتجهت ... اشم رائحة الصنوبر في كل زاوية من المكان الذي نحن فيه ... اغرق في عطر الصنوبر ... اتحرر من الخوف والموت والماضي ... اضحك بصوت مرتفع ... يمسك « ابو مشهور » بيدي :

— ما بك ؟ هل تحولت الى شاعرة مرة اخرى ؟

احاول أن اشرح له معنى « الضربة الصاعقة » التي تأتينا أحيانا كالوحي وتجعلنا نعيش متوحدين مع حقيقتنا الخاصة . لقد آثرت ان اكون صادقة واتحدث عن ذاتي تلك الليلة .

نقف ، نقطع الشارع المقابل للمطعم ... نسير تحت المطر الخفيف بهدوء . نتكلم عن كل شيء ولا نتحدث عن عمليتنا. الخطة تقتضي ان لا نناقشها طويلا قبل التنفيذ ... يبدو أن رفاقنا في القيادة قد انتبهوا جيدا للنتائج النفسية التي تولدها مناقشات كتلك .

نصل الفندق ، نتجه معا الى المصعد . يودعنا الرفيق « القادم من المانيا » ويمضي .

يلتقي وجهي بوجه « ابو مشهور » في المصعد ... ارى غابات الزيتون في عينيه ، نبل حاد لوجه عاش وكبر في المنفى ... اسند راسي الى كتفه ورغبة داخلية عميقة تدفع بـي لان اقول له شيئا . يمسح راسي وينحني عليه فيقبله . يقول لي : « ايتها الزوجة المؤقتة لنكن عاشقين ! » .

اسمع صوته يأتيني لاول مرة بوضوح ... وضوح يشبه اغنية بلا غيتار ولا مصاحبة موسيقية ، انشودة كئيبة يعبرها الكثير من الامل ... توجه لامراة يساوي جميع رسائل الحب التي كتبت ... الاشعار الهزيلة التي تعب شعراء اتخمتهم الشمس والوجبات الدسمة في نظمها .

نصل غرفتنا ... غرفة زوجين قادمين من اميركا لقضاء شهر عسلهما في اوروبا ... نحاول ان نتحدث عن الاطفال والملائكة والتجارة والتحف التذكارية ، خطة العملية تقتضي ذلك ... كنا نخاف أن تكون الغرفة مراقبة ، او انهم قد ثبتوا مسجلات فيجدرانها ... نحاول ان ننام ... اصوات الصمت تنبعث في سماء غرفتنا كنحيب مكتوم . ابحث عن النوم ... ابحث عنالسكينة . اتذكر كل ما حفظت من حكايا امي واعيدها على راسي ... ارى الوجوه تتبدى لي في الظلمة ، واخاف ان اغمض عيني حرصا على الزمن الذي اعيشه . يتقلب « ابو مشهور » الى جانبي ويلمحني على الضوء القادم منالنافذة ... يسالني : اما زلت صاحية ؟

نتناول معا سجائرنا ونبدأ فيالتدخين .

يأتي الصباح ونحن ما زلنا في الفراش . المح الضوء

يتسلل الينا من النافذة ... اترك السرير واتجه الى الضوء، ازيح الستائر ... ارى جنيف ترقد في الساعات الاولى من النهار ... السقوف الخشبية الحمراء تنحدر باتجاه البحيرة ... البحيرة تتجه الى بحر لا يعرف مصبه ... كل شيء في هذا العالم يتجه الى مكان ما ، ونحن ؟ يقرع الباب ويدخل عامل الفندق حاملا بيده صحف الصباح وقهوتنا . المح وجه العالم العربي كالحا في صحف اوروبا . « جورنال دو جنيف » يتحدث عن امكانية زيارة متوقعة لوزير الخارجية الاميركية الى احد بلدان المواجهة و «هيرالد تريبيون » تتحدث عن رفع اسعار النفط ... انتقل للصفحات التالية فارى وجه أوروبا العجوز ومشاكلها ... ازمة الانتخابات البلدية في فرنسا ... التأمين الصحي في ايطاليا ، قضية تحرير المراة في انكلترا .

ينظر « ابو مشهور » الى تعابير وجهي وانا اقرأ نبأ زيارة وزير الخارجية الاميركية للشرق مرة اخرى ويسألني :

— ايه ، ما رايك ؟ هل سيكون راسنا هذه المرة ؟

اشعر بحقد عجيب على هذا الكون .. لماذا لا نحول الطائرات ؟ لماذا لا ننسف الشركات والمؤسسات والبيت الابيض ، لماذا ؟ هذه ضرورات علينا ان نفهمها في وجه اللاشرعية التي نعامل بها .

فرانك ...

لماذا احدثك الان عن كل هذا ؟ اسمع صوت السكارى يغنون (آه لو يرجع زمن الكرز) انظر الى اوراقي البيضاء كجثة ملفوفة جيدا بأكفانها . ما زلت مشدودة الى مقعدي

في زاوية المقهى ، يخطر ببالي ان اسأل الخادم عن اسم المقهى ، اناديه ، اطلب منه كأس براندي آخرى ، يحملها لي وهو يغني مع السكارى الاخرين : « لو يرجع زمن الكرز » .

لو يرجع زمن الكرز ، لو كنت هنا هذه الليلة لجلسنا على الضفة اليمنى للسين حيث قريبا من قصر العدالة تنام مجموعة صعاليك باريسيين اصلاء يكتفون بزجاجات نبيذهم وسجائرهم . ان أعظم شيء هو ان تكون صعلوكا في هذا العصـر .

لو كنت هذه الليلة هنا لحدثتك عن وجه « ابو مشهور » و « جنيف » و « عينتاب » ، وطلبت اليك ان نرحل معا من جديد الى هناك ، حيث تغتسل انت من نسيانك او محاولتك النسيان واغتسل انا من جبني وعدم قدرتي على مواجهـة العالم بوجهي الحقيقي . وسنكون صعلوكين ثوريين على طريقتنا . انت لاتعرف شيئا عن عروة بن الورد .

لو كنت هنا هذه الليلة ، لرحلنا معا ، لطلبت اليك ان تتحول الى شيء شبيه بالصاعقة ، بنجم القطب ... ان تهجر هذه الارصفة الميتة ، جمود الحياة وزحمة السير ، المرحلة القصوى للراسمالية والانتخابات التي يلعبون اوراقها على طاولة تسليتهم ، لون الشمس الازرق ، وعشق الالهة لـ « فاغنر » .

لو كنت هنا هذه الليلة ! اطلبك بافرانك واحتاج اليك، احتاج ذراعيك وصدرك وعينيك ، احتاجك قبل ان امضي عن باريس حيث لنا في كل شارع من شوارعها لقاء وذكرى ... يؤلمني أن اودعها تحت المطر ، وحيدة ... يؤلمني ان ارحل عنها دون أن يكون في وداعي احد . كم هو مؤلم الرحيل دون وداع ... كم هي قاسية المدن دون احبة !

تفر المناظر الى المستقبل ، افتقدك ولا اشتاق اليك... اشعل الذهن بك ويخفق القلب بذكرى رفاقي السابقين ... احاول الان وفي هذه اللحظة ان احدق في المستقبل ... ارتد الى الماضي يوم عرفتهم ... لماذا الماضي والمستقبل لماذا ؟ انا هنا في هذه اللحظة . يتمرد الليل على حزني ، يتمرد النهار ايضا .

شعب ، تضحية ، حلم ، حرب ، كلها كلمات ضائعة .

عد بسرعة قبل ان تستسلم المراة من جديد للتيار الذي يجرفها منذ اربعة اعوام وهي بعيدة عن الوطن ... وهي متبلدة لا عاشقة ولا معشوقة ، لا مناضلة ولا متقاعدة ، قدم على خليج الاسكندرون والاخرى في اوروبا .

انت بعيد ... بيننا قارات وبحار ... و « عينتاب » التي تحترق في صدر البحر من الطرف الاخر . انت بعيد ، والليل طويل ، والعودة الى بيتي تخيفني ... اخا فالجدران الباردة ... اخاف وحدتي وصدر سريري وخارطة الوطن التي تستقر على الحائط المقابل كجثة . جثة الوطن تسكن غرفتي منذ زمن . في كل يوم افتح التابوت الخشبي وانظر الى الجثة فأشعر بشيء من الفرح لانها لم تتعفن بعد . الوطن يموت او بالاحرى مات، لكنه لم يتعفن بعد! حاولت ان ادفنه في صدرك واستريح ... لا صدرك اتسع له ولم يقبل لعيني بديلا . أعدته الى العينين واغمضتهما .

منذ ذلك اليوم ...

لماذا نعود الى ذلك اليوم ؟ على كل حال : منذ ذلك

اليوم ، اذا استيقظت ذات صباح ولم أجد الوطن ... قالوا لي : انه ركب فرسا وسافر الى مكان ما ، سألت عنه في كل مكان ... في جسدك ، في عيني راؤول ، في اغاني « احمد » الاتية من اعماق الصعيد « ليلي ويا ليالي وآه » ، كأس عدنان الذي يحمله ابدا الى البعيد حيث يدفن الاسماء — الآلهة ، في أشعار وآيات قرآنية يحفظها الباهي ولا يكف عن ترديدها. الوطن ابتعد ... ركب فرسا وسافر الى مكان ما .

وفجاة صرخت باسمه فجاء الي رسل الحكام واقتلعوا عيني ... وبينما كان الدم يغسل صدري واسفلت الشارع ، رأيت الوطن يسقط بين دموعي ويختفي .

منذ ذلك اليوم ،

اخاف العودة الى بيتي ... الجدران الاربعة ترعبني . استيقظت واستيقظت المرأة الشجرة .

اقول : أرغب بالنسيان ، لكنهم بالامس جاءوا الى دمي من بعيد ... من المدن التي هجرتها ... ها هم يسكنــــون كل شيء . آه لو يرجع زمن الكرز !

جنيف والثلوج قد غطت كل شيء . في طرف غرفتنا في فندق « ريتز » تقبع قطة رمادية صغيرة حملها لي عامــــل الفندق هذا الصباح وقدمها لي هدية من السيدة « روزلين » صاحبة صالة القمار ، بعد أن لاحظت بالامس ولعي بالقطط ، اذ داعبت قطها الرومي ونحن على طاولة العشاء وكنــــت معه في غاية اللطف والتهذيب كما يتطلب سلوك سيدة متحضرة قادمة من اميركا ... واذكر انها سألتني مطولا : منذ متــى

بدأ اهتمامي بالقطط ؟ وهل افضل انواعا بعينها ؟ وهل افكر بانجاب طفل أم لا ؟ ثم غمزت لي بطرف عينها حتى لا يلاحظ ابو مشهور ذلك وهمست في أذني :

ــ عليك بعدم انجاب طفل أذا كنت حقا تحبين القطط ، لان القطط شديدة الغيرة !

وطمأنت السيدة « روزلين » على مصير قطط الارض كلها اذا كانت المسألة تتوقف علي انا .

اقف لارتدي ثيابي ... يرن الهاتف ... اسرع اليه وشيء ما في داخلي ينبئني ان هناك ما يتعلق لحظات انتظارنا للعملية التي اقترب موعدها . أرفع السماعة ، يأتيني صوت « صالح » ، يخبرني انه وصل مع نايف منذ ساعة فقط عن طريق « فرانكفورت ».. .نتفق على اللقاء في مطعم ادوار (٧) قريبا من ساحة الجندي المجهول ... ارتدي ثيابي بسرعة واهبط الى صالة الفندق . ابحث عن « ابو مشهور » بعيني ... أراه في الركن امام فنجان قهوة ووجهه محمل بالمتاعب . منذ وصلنا جنيف لم يتوقف عن طرح الاسئلة : ماجدوى عملية كهذه ؟ ولماذا حرب الجو التي لا مبرر لها ؟

الشك في راس « ابو مشهور » يجعلني اعيد النظر في امكانية اتمام العملية برفقته ... هل استبدله برفيق اخر ؟ وكيف ؟ لم يبق على موعد التنفيذ سوى يوم واحد فقط ، وكل نقاش نبدأه معا يصل بنا باستمرار الى النتائج نفسها . لقد كان من افضل مقاتلينا واكثرهم جراة ، لكنه لم يتمرس جيدا بالنضال السياسي . فقد انتقل من السنة الاولى بالجامعة ليلتحق بالمعسكرات .

اقترب منه ... يظل سارحا يتأمل البساط الابيض الثلجي من وراء الزجاج .

اقــول لــه :

ــ لقد وصل صالح وفرحان عنطريق فرانكفورت ، انهما ناانتظارنا في ادوارد (٧) .

ينتبه الى جملتي الاخيرة ويقف ... نتجــه معا الى الشارع ... أتأمله خلف نظاراته الطبية التي طلب اليــه وضعها للتمويه .

احاول ان امازحه قليلا :

ــ هل كتبت وصيتك قبل ان نرحل عن « حران » ؟

ــ لا وصية لي ، سوى انني امنع عليك الزواج مــن رجل آخر .

ــ اقطاعي عظيم ... لم تتخلص من حس الملكية .

ارى ابتسامة تضيء وجهه الاسمر ، عيناه خلــف زجا جالنظارة كعيني اله ... الشك في عيني «ابو مشهور»، الشك في كل شيء . لست ادري لماذا تحمل عينا المقاتل شكا ابديا . عيناك أنت يا فرانك بحيرتا شك ابدية ...

قبل ان نعبر الشارع الــى المطعم الروسي الغارق بالدفء اقول له :

ــ اما زلت غير قانع بجدوى العملية ؟

ــ ليست هذه العملية بالتحديد ... كل العمليــات الخارجية . اختلف معكم تماما بالراي .

ــ ارجو ان لا تنقل شكك الى صالح وفرحان ، وان

كنت لا ترغب حقا بالمشاركة فاننا نستطيع اتمامها دونك .

بدت امارات حزن وخيبة على محياه ... لم افهمه ... اعتبرت آن تردده مسألة شخصية . يشرح لي :

ــ القضية ليست مسألة شخصية يا نادية ، انا مستعد بالطبع لتنفيذ المهمة بحذافيرها . لكنني سأقول رأيي في اية لحظة حول صلاحيتها وفائدتها . هذا النوع من العمليات تجسيد غير مباشر للبطولات الفردية على حساب البطولات الجماعية ... غداستكتب الصحف اخبارنا ... سترين وجهك على ثلاثة اعمدة او اربعة في الصفحات الاولى ... ستكونين بطلة ، اما الذين يموتون في السهول الشمالية و « حران » و « عينتاب » فلن يتكلم عنهم احد .

ــ نحن بحاجة الى بعد أعلامي ، الا ترى اننا محاصرون في أوروبا الغربية ؟

ــ الفيتنام بعد عشر سنوات ...

لم ادعه يكمل .

ــ لا تعد الى الفيتنام وكوبا وغيرهما . لكل ثورة ظروفها . نحن نقاتل دون ارض ... دون شريعة ... دون قانون .

ــ وبوليفيا ؟

ــ ظروفها مختلفة ايضا ... لقد ذبحوا كما تعلم دون ان يهب لنجدتهم أحد .

ــ أنت ارهابية ممتازة يا نادية ! هل فكرت بأرواح مئات الناس الذين على متن الطائرة ؟.

شعرت بوخزة الم في داخلي ... لم انم منذ ابلغني

عصام نبأ تغيير حياتي ... لقد درست الموضوع من كافة وجوهه ، وتوقفت طويلا أمام قضية الركاب . لكنني عاهدت نفسي بشرف أن ابذل قصارى جهدي لانقاذهم . لماذا لا نقتلعهم قليلا من سأم راحتهم وكلابهم وقططهم المدللة ومجتمعاتهم الاستهلاكية ؟

ــ « أبو مشهور » ... لا يحق لمخلوق في هذه الارض ان يعيش بسلام ، بينما هناك ملايين البشر يموتون تحت الرعب والارهاب . اذا كنت تسمي هذا أرهابا فأنا أرهابية مهنية .

وصلنا الى المطعم دون ان نحسم النقاش ... استقبلتني أسئلة صديقيّ ... تعانقنا وهنأتهما بالسلامة ... تناولنا غداءنا بصمت ، ما عدا كلمات عابرة كانت تخرج من شفاهنا لتبدد جو الصمت الذي ساد المكان . افهمت رفاقي اننا ما نزال بانتظار رفيقين اخرين سيأتيان من « هامبورغ » أحدهما فلسطيني طبيب والاخر جزائري . ومن المفترض ان يوجه الرفيق الجزائري العملية حتى لحظة ركوبنا الطائرة حيث تنتهي مسؤوليتها لي انا . خرجنا لتناول قهوتنا في صالة الفندق ... عندما اصبحنا في مواجهة الثلج والريح أحسست أن ضباب ليلة البارحة يختزن نفسه في صدري ... شعرت بنشوة غريبة وجريت راكضة باتجاه الرصيف المقابل غير عابئة ببعض السيارات التي تقطع اشارة النور في تلك اللحظة . رفعت راسي الى السماء واستقبلت حبات المطر الخفيفة بعيني ... تذكرت ايام ارم ... برودة تشرين ... وازهار اللوز الميتة على امها .

استقبلتني عاملة الهاتف في الفندق وابلغتني مكالمة

هاتفية تلقتها قبل دقائق من «هامبورغ» : لقد طلب رفيقانا الاتصال بهما فورا . تركت الجميع في الصالة وخرجت اجري باتجاه محطة القطار .. تظاهرت بشراء بعض الواح الشوكولاه وسألت البائعة عن « غرفة تلفون » . اشارت لي بيدها الى اليمين ثم استمرت في حديثها عن الطقس واسعار اللحوم . تلفت حولي جيدا باحثة بعيني اذا كان هناك من يتبعني او يراقبني . وعندما تأكدت من خلو المكان دخلت الى « الغرفة » واغلقت الباب ورائي جيدا ثم ادرت قرص الهاتف على دليل « هامبورغ » وطلبت الرقم الذي كنت احفظه في راسي ... لقد تعودت منذ بداية تدريبي على العمليات الخارجية ان لا احمل معي اي دفتر عناوين او ارقام هواتف مكتوبة ... كل الارقام والعناوين والاسماء احفظها في رأسي ... الانسان وحده في النهاية اكثر قدرة على حل الغاز هذا الكون .

يأتيني صوت الرفيق الجزائري من الطرف الاخر :

ـ هل سقطت ثلوج كثيرة في جنيف ؟

ـ انها تمطر منذ البارحة .

ـ اتشعرون بالبرد ؟

ـ اننا ننتظر مقدمكما ، النزهة حول البحيرة مغرية.

الحديث يجري باللغة الانكليزية ... يحاول الرفيق افهامي انهما قادمان في المساء . اختم المكالمة واضع سماعة الهاتف ... اشعر رأسي يدور قليلا . لقد اقترب موعد التنفيذ . اخرج مسرعة واجري باتجاه الفندق ... اتوقف امام محل بائع صحف واشتري صحف الصباح ثم اقفن

عائدة الى رفاقي الذين ينتظرون ... لم اجدهم في الصالة ... صعدت الى غرفتنا فرأيت ابو مشهور وحيـــدا يقوم ببعض التمارين الرياضية .

ـ اين صالح وفرحان ؟

ـ ذهبا الى فندقهما ... يشعران بالتعب قليلا .

ـ سيأتي رفيقانا هذا المساء .

يفهم ابو مشهور من كلامي ان العملية قد تقرر موعدها بشكل نهائي في صباح الغد .

نجلس معا على حافة السرير ونبدأ في دراسة الخرائط التي نحملها ... خط سير الطائرة اولا ، قدرنا معا نسبة الارتفاع الممكنة وطبيعة الحو الذي سيصادفنا . توقعـــت مطبات هوائية فوق السماء الايطالية ، الامر الذي سيضطرنا الى الهبوط الاجباري في مطار « روما » لو ساءت الاحوال الجوية . ولم يكن الهبوط مأمونا ، لا سيما اذا تم الاعلان عن تحويل الطائرة بعد مغادرة جنيف مباشرة . ذكرني «ابو مشهور » بأنه يمكن لنا الطيران على ارتفاع منخفض في الحالات الضرورية لكنني فضلت ان يتم حسم هذه المسألة بعد ظهر اليوم مع صالح ، فهو طيار سابق وادرى منا في هذا المجـــال .

عشرة ايام في جنيف ونحن بانتظار تنفيذ العملية . في اليوم الثالث ارسلت برقية الى عصام اقول فيها :

« كل شيء على ما يرام ، ساضطر لتأخير العملية الجراحية ثلاثة ايام » وكانت هذه العبارة تعني : ان ثمة تأخرا في موعد التنفيذ مدته ثلاث دقائق . في اليوم الخامس ارسلت برقية اخرى اقول فيها :

« نصحني الطبيب ببدء العلاج المقرر . سيكون موعد اول جلسة كهربائية بتاريخ ... » وحددت الموعد بالضبط ... ختمت برقيتي بالعبارات المعهودة « تحياتي لكم جميعا، نحـــن بخير » .

نظرت الى كلمة « بخير » مرسومة على الورق كصورة لجثة متعفنة ... حاولت أن أصدق نفسي : اننا بخير ، تذكرت ، كم نغرق دون وعي منا في « كليشهات » صيـــغ لغوية تجعلنا عبيد كلمات لا معنى حقيقيا لها في حياتنا . سلمت البرقية لعاملة البريد الشقراء وخرجت بسرعة ..

آه كم اشعر بالبرد هذه الليلة .

اين انت يا فرانك ؟

لماذا يهاجمني وطني بهذه القسوة المرعبة ، لماذا ؟ لماذ يهاجمني ضميري وغربتي ورغبتي الاكيدة بالحياة ؟. لماذا قبلت أن اكون مقاتلة في مملكة العمل السري ... يدي على سلاحي وزوايا من الليل تضمني اليها برعب ... اقول لم يكن من بديل ، واتذكر الان ان نضالي السياسي قبـــل التحاقي بهم جعل مني تصور جدل وترف .

(ليلة الخامس من حزيران مرة أخرى ... الحديث الذي لا ينتهي عـــن حقوق العـــمال والفلاحين .. خطب الزعماء وتهديدهم ... الحرب التي تنزف مطرا على « ارم » و « عينتاب » وكل المدن الشبيهة بي ... ابائي الفكريون ... قادتي ... كانوا مثلي عاجزين عـــن الوقوف بيني وبين فجيعتي . عائدة من المستشفى العسكري وانا احرق في رأسي صورة مشوهي النابالم ورائحة جلودهم ... عبثا

احاول ان انتناسـاهــم واعود الى هــدوئي الشبيــه بهدوء المستنقعات . اذهب الى القائد الذي لا يخطىء ... اقرع بابه ، تفتح لي زوجته الجميلة الغارقة بأحلامها : اريــد مقابلته !! انه مشغول ، لم ينم البارحة . اقتحم ألباب وادخل اليه في مكتبه ... أصرخ في وجهه : الان سنصفي حساباتنا . تعال وحدثني عن مثلكم ، عن نظرياتكــم ... الان قل لي : بم زودتموني وامثالي لنصدهم عن ابواب « ارم » ؟ ينظر الي بتعال ... بعطف ... بشفقة . نظرة أب الى طفل ضال ... يقول لي وابتسامة صفراء لا تفارق محياه « يا نادية ... انت شاعرة جيدة ومناضلة سيئة ! لقد أعطت الحرب نتائــج ايجابية ، لقد فضحــت أنظمة البرجوازية الصغيرة وعجزها عن خوض معركتها الوطنية التي عطلت لاجلها كافة المعارك الاخرى ، الطبقيــة ... الاجتماعية الديمقراطية ... لقد اسقطــت الحرب مقولة الحزب الواحد ، ليفهم هؤلاء الاغبياء استحالة استمرارهم في الحكم بمفردهم » .

أصرخ في وجهــه دون وعي : « اغرب عنــي انت ونظرياتك ! ليس ألوقت وقت تشف ... هل كان علينا ان نقبل أحتلال نصف وطننا لنثبت صحة نظرياتك ؟ ان « ارم » مهددة بالسقوط » .

دهش لاجابتي وامتقع لونه ... هي المرة الاولى ربما التي يمس فيها قائدنا ألذي لا يخطىء . ابدا ما حصل في تاريخ الحزب ان مدت له يد او أشارت له عين . كان علينا ان نسمعه ونردد ما يتحدث به .

خرجت تائهة في الطرقات التي كانت تمتد دون نهاية ... متعبة « ارم » ... وجهها شاخ زمنا ... اصل قريبا

من زوايا الدفاع ... ألمح احدهم . اجري نحوه : « قل يا علي ماذا سيحصل ؟ » يبتسم ويسألني « أما زلت تكتبين شعرا عن الحب ؟ » .

كم يستيقظ بنا الوحش ؟... في تلك اللحظة احسست دمي يتحول الى هدير من الحقـد ... احجار الارصفـة تذكرني بالجماجم التي سقطت لتكون « ارم » و « ارم » مهدده بالاحتلال ... بالفناء .؟

غـدا يضاجعها جنود الاحتـلال ... يضاجعونني واخواتي وصديقاتي ... غدا نحمل بأطفال الاحتلال ونتقيأ شـعاراتنا .

أركض باتجـاه مبنـى الاذاعـة ... دون أن اعبأ بالحراس والجنود ، انطلق كالسهم الى الداخل ... اصعد الطوابق الثلاثة لاهثة ... التقي بوجه « بهية » رفيقـة مناضلة من احد بلدان الخليج ... تلمح اصفراري ورعبي ... تأخذ بيدي وتقودني الـى مكتبها ... تخرج حبـة « فاليوم » وتعطيني اياها : « أهدئي قليلاً يا نادية ، منذ دقائق تلقينا نبأ اقترابهم من « ارم » . اطرق برأسي الى الارض . كنت اريد ان ادخل الى « الاستديو » واتجه الى العرب المشدودة قلوبهم الى « ارم » ، اقول لهم : يا جبال الطحين واللذة ، ها نحن نحصد بترولكم ونساءكم وثرواتكم ... اقول لهم نادوا على ربكم ليدافع عنكم ... صلوا له ... صلوا كثيرا . صلوا له ليحرقكمْ ويخرج من رمادكم بشرا ... كنت اريد ... ») .

باريس تمطر بشدة ... الطرقات ضيقة والعـودة الى البيت تخيفني .

كل شيء يبحر في البعد ... كل شيء يبحر في الاغتراب والغربة ، وحتى انت ايها الحبيب البعيد ... ايتها السكين التي مزقتني واعادتني الى آلامي كلها .

الوطن بعيد .. الوطن في العينين . لبنان حزيراني كحزيران ، وسيبقى على مدى التاريخ تلك النقطة السوداء في جباهنا .

جنيف مرة اخـــرى .

اقترب من نقطة التفتيش في المطار ، محاولة ان اخفي في وجهي اي اثر لما يدور في راسي . كانت حقيبة يدي تحتوي على قنبلة مؤقتة ، وعلى جانبي الايسر ، ما بين حاملـــة الجوارب والخصر يستقر مسدس عيار ٦ ملم كاتم للصوت . فوق ثديي الايمن ، وضمن مظروف صغير ثبت الى الجسد ببلاستر ، ثلاث حبات تكفـــي الواحدة منها لقتــال رجل ، احتفظت بها للحظات الحرجة . انظر الى وجه « ابو مشهور » وهو يخطو امامي هادئا وطبيعيا ، بينما كان صالح ونايف خلفنا يقفان في الطابور الاخر حاملين حقائبهما الصغـــيرة المليئة بالاســـلحة .

يعبر « ابو مشهور » نقطة التفتيش ، ملامحه الشبيهة بملامح سكان المكسيـــك لا توحي لرجـــل البوليس بشيء غريب . يعبر الحاجز واتنفس انا الصعداء ... اقتـــرب بدوري حاملة جـــواز سفري الاميركي ومجموعـــة صحف انكليزية حرصت على شرائها ذلك الصباح ... صوت ما في داخلي يعلو كضجيج الساعات الاخيرة من الزمن ... اخاف ان يلمح الشرطي وطني في راسي ... وطني آلمنفي المحاصر

الذي احمله في عيني كيفما اتجهت في هذه الارض . اخاف ان يلحظ بشرتي السمراء ويسألني : من أية بلاد أنــت ؟ لكنه يبدو غير عابىء بما يدور في راسي ... جواز سفري الاميركي يجعله يومىء لي برأسه دون ان يكلف نفسه وضع الختم على صفحاته ، أعبر انا الاخرى . أرى صالح ونايف قد عبرا قبلي ... نسير متباعدين ... نصعد الطائرة ... ... القي بحقيبة يدي واخرج سيجارة بعد ان استقر قريبا من النافذة . اتوجه بالحديث الى رفيقي :

— ايه ، هل انت مطمئن ؟

يهز راسه ونتفث معا دخان سجائرنا في فضاء الطائرة ... احدق حولي ، الطائرة مجهزة بشكل جيد . فوق مدخل الدرجة الاولى عبارة « ممنوع التدخين » مكتوبة بالانكليزية والعبرية ، وعلى الجدران لوحات تمثل مدن الارض المحتلة ... تمر الدقائق دهرا ... اسمع صوت المضيفة يطلب الينا اطفاء السجائر وشد الاحزمة ... تقلع الطائرة ، تبدو المدينة في حضن ثلوج الليلة الماضية عروسا جميلة غارقة في احلامها ... ألوان الزهور الكثيرة المزروعــة في صدر الثلج حولت المنظر الى جسد نازف بالحقد والدم .

استنجد بالمدن التي احــب ... استنجــد بـ « ارم الجميلة » تلك التي علمتني كيف اتنفس واعيش واقاتــل لاعيش ... وجهها في عتمة الصبح وانا افارقها الى «حران» لا اجمل من « ارم » وهي ترد حجابها عن وجهها في ساعات الفجر ونحن نضحك معا . مرت عشر دقائــق تقريبا وانا انظر الى وجه جنيف الغائبة وسط الضباب والريح ...

كحبيب على محطة قطار ... ارى السحاب ... السحاب فقــط .

تمر بنا المضيفة بكؤوس الشراب ... فيفلت الضباب من اصابعي وفمي ... احاول الامساك بغيمة كثيفــة في الخارج ... افشل ، اتناول كأسي واسند رأسي الــى كتف « ابو مشهور » . يلمحنا الراكب في الخلف فيبتسم ... ربما قال لنفسه : يا لهما من عاشقين !.

يمضي ربع الساعة الاول واسمــع صوت المضيفــة يرحب بنا باسم قائد الطائرة ، ينبهنا الى دخول الاجــواء الايطالية ... يذكرنا ان الطيران على ارتفاع ٩٠٠٠ قدم .. اقتربت لحظة التنفيــذ .

أمد يدي فاتحسس مسدسي ... تسري قشعريره خفيفة في جسدي . آخذ حقيبة يدي واتجه الى دورة المياه ... عبر الممر اضغط على بطني متظاهرة بأنني اعاني من مغص مفاجيء . يتبعني ابو مشهــور محاولا مساعدتــي ونسمع صوت احد الركاب : « من الافضل أن تأخذ شرابا ساخنا وتستريح دون حركة » . نعبر معا مقصورة الدرجة الثانية ، وعندما نصل الى الدرجة الاولى يضغط على يدي بقوة فأفهم أن علي الاتجاه مباشرة الى غرفة القيادة . لحظات صمت قاتل ألقت بظلها علينا وانتظرنا ان يلحق بنا كل من صالح ونايف . تستوقفهما المضيفة في الممر قائلة : « هناك سيدة تعاني من مغص ، أنتظرا قليلا حتى تخرج » . لــم يعيرا ملاحظتها اهتمــاما واستمرا في طريقهمــا الينا ... يدخلان عتبة مقصورة الدرجة الاولى ... انطلق انا كالسهم الى « غرفة القيادة » ... اضرب الباب بقدمــي شاهرة مسدسي باليمنى بينما كانت يــدي اليسرى تضغــط على

مسمار الامان للقنبلة المؤقتة ، أنطق عبارتي التي رددتهـا ثلاث مرات فيما بعد .

انا مقاتلة من .... » وذكرت اسم المنظمة التي انتمي اليها ، مضيفة :

الطائرة تحت امرتي ، اتجه بنا الى « أرم » مارا بسماء الارض المحتلة ، حركة سيرك تكون روما ، اثينا ، نيقوسيا ، اية مخالفة منك ستجعلني افجر الطائرة » .

فوجيء الطيار بنا ، وبدا وجهه كالشمع بينما حاول مساعدة أن يقاوم ، فتولى « ابو مشهور » امره وسيطر عليه ... ثم شد وثاقه الى المقعد . صالح ونايف أحتلا مقصورة الدرجة الاولى ، ثم توجها للركاب بنداء يطلب اليهـم عدم التحرك من اماكنهم . ثم شرحا باللغة الانكليزية والفرنسيه الهدف من العمليـة .

« لا نريد بكم شرا ، نتمنى أن لا نضطر للجوء الـى العنف ، الهدف من عمليتنا هو : تعريفكم وتعريف العالم بقضيتنا » . بعد ذلك وزعا بيانا اعددناه في جنيف ليلة الرحيل شرحنا فيه الكثير عن تاريخ القضية الفلسطينية .

متجمدة امام لوحـة الرأدار ورأس الطيـار امـام مسدسي ... شيء من الرغبة بالحياة يداعب مخيلتي ... الاوامر واضحة في راسي : عدم اللجوء الى تفجير الطائرة تحت أي ظرف . محاولة انقاذ حياة الركاب بأي ثمن .

اعطيت شروطي للقبطان بوضوح :

« الهدف من عمليتنا هو :

١ — اطلاق سراح احدى المناضلات التي عذبت حتى الجنون في نابلس .

٢ ــ اطلاق سراح اربعة رفاق لنا قبض عليهم اثناء احدى العمليات في السهول الشمالية .

٣ ــ اطلاق سراح خمسة فتيان اعتقلوا مؤخرا في مظاهرات القدس » .

هز الطيار راسه بصمت ، بعد دقائق سألني : اذا كنت ارغب ان ينهي شروطه للارض في مطار روما .

هززت راسي بالايجاب واضفت : « شريــطة عدم الهبوط » .

فوق روما الغارقة في احضــــان بحيراتها لاحظت أن الطائرة قد بدأت بالانخفاض ، وبدت علــى لوحة الرادار اشارات تدل على أننا نطير على ارتفاع منخفض جدا ... فهمت اللعبة وقربت مسدسي اكثر من رأس القبطان :

« اسمع ، لسنا اطفالا ، ارسل بالشروط فقط معلنا عن تغيير اتجاهك . لن اتردد ابدا في قتلك ... معنا من يقوم بقيادة الطائرة حتى هدفها » .

هز راســه مجيبا بالتأكيد وارسل بنداء الـــى الارض يطلب فيه الى حكومته قبول شروطنا . كانــت قشعريرة ما تسري في جسدي ... عيناي تلاحقان لوحة القيــادة دون توقف .. الموت في تلك اللحظة لم يكن بعيدا وتمنيت ان تنتهي الحرب ... تمنيت ان يقف الزمن واجد نفسي تحت شجرة خضراء من اشجار الزيتون في ضواحــي مدينتــي الساحلية افترش الارض واستقبل السماء بعيني . نظرت الى وجه رفيقي الهادىء الصامت ولمحت بعض الحلــم في عينيــه .

ظلت الطائرة تدور ربع ساعة فوق مطار روما ونحن ننتظر اجابة غرفة القيادة في المطار ... كنت قد اعطيتهم مهلة عشرين دقيقة لاستقبال الرد . بعد ربع ساعة التقطت شيفرة فهمت منها : ان هنـــاك صعوبات تمنـــع الاتصال بسفارة العدو ... لقد رفضوا اذا . ابلغت الطيار بالاتجاه الى أثينا دون أن ابلغ غرفة قيادة مطار روما بذلك . لكنني اكدت عليهم : ان الشروط ستكون نفسها ، من اي مطار نهبـــط فيه .

مرت اللحظات بطيئة ... الدقيقة دهر ... الثانية عمر ... الصمت المطلق يسيطر على الطائرة ، صمت جعلني اتخيل نفسي في لحظات خشوع الهي كتلك التي تسبـــق المـــوت .

قاس ان يضطر الانسان للقتل ! ولكن كم هو مذل ومهين أن يقتل . لماذا كانت الحرب ؟ لماذا الاسلحة ؟ لماذا المـــوت ؟

لم أذهب بأسئلتي بعيدا ... تذكـــرت ان المليـــون ونصف المليون من اللاجئين يموتون من الجوع احيانا وليس من الحرب ... يرتجفون تحت الخيام في الليالي الماطرة وتئد نساؤهم خوفا مـــن الموت . تذكـــرت معنـــى ان تكون فلسطينيا ... مسألة في غاية التعقيد لان ذلك يعنـــي : ان تعيش مشردا ، او ان تضطر للقتل .

تنفست بعمق ويدي على القنبلة ... بدونا في السماء سفينة ضائعة لا شواطيء ترسو عليها ولا امل ننتظره ... ارواح مئة وخمسين راكبا في عنقي ، وعلي أن أفكر بحياتهم قبل كل شيء . يقرب أبو مشهور وجهه الي في تلك اللحظة:

ـ اذا عدنا سالمين سأظل احبك .

تنمحي المسافات واشعر بالزمن نقطة سوداء مضيئة تنام في ذاكرة اللحظة .

رددت : وان عدنا سالمين سأظل احبك .

يا الهي ! ما افظع ان نكون عاشقين في لحظات الموت ... حياتنا في تلك الدقائق الرهيبة كانت رهينة اي خطأ نرتكبه نحن او الطيارون او الركاب ... اين الاباء والقادة والمنظرون ليعيشوا هذه اللحظات الرهيبة ويضربوا عن خطبهم الرنانة ؟ ابائي السابقون ... ان قادتي اباء عاقرون وعاجزون عن الانجاب . اتذكر ان الموت ليس ما ننتظره ، لكن الموت ما نعيشه بانتظار الموت . وجه الطيار جامد يبدو في لوحة الرادار كتلك الوجوه التي تمر بها في ايامنا العادية دون ان تستوقفنا ، الى ان يكون اصطدام سيارة او سقوط قنبلة ، فنجد انفسنا نعبر اليها بمبالغة غريبة . لست ادري لماذا مرت بي لحظات شعرت فيها انني قريبة من وجه الطيار ... كان في الاربعين من عمره تقريبا، يحمل ملامحنا نحن سكان الشرق ... يحمل ايضا الكبرياء نفسها التي تطبع انوفنا وتجعل منا تحت ضوء الشمس أولئك البشر الذين يحلمون كثيرا . رغبة ما في داخلي كانت تدفع بي ان اتحدث اليه ، ان اقول له : « اسمع ، اظن انك ولدت في فلسطين ولاب يهودي فلسطيني ! » هناك نبت ، هناك زرع اطفاله ، هناك تعرف مثلنا على ليالي الجوع والعطش ...

قبل ان تدخل الاجواء اليونانية ، التفت الطيار الي وحدق طويلا في ملامحي قبل أن يقول لي بالعربية :

ـ الطائرة ستدخل الاجواء اليونانية ... اتفضلين ان نطرح شروطكم من جديد على مطار اثينا ؟ ام نستمر الى نيقوسيـــا ؟

مرت بي لحظة تردد حاولت ان اخفيها عنه فقلت له :

ـ نيقوسيا ، عليك بالاتجاه مباشرة الى نيقوسيا .

استمرت الطائرة في خط سيرها ، وقبـــل الهبوط في مطار نيقوسيا جاءني صالح في غرفة القيادة وابلغني ان هناك سيدة تعاني من دوران الجو . طلبت اليه أن يعطيها بعض الادوية التي كنا نحتفظ بها لمثل هذه الحالات ... اخذ حقيبة يدي التي كانت ملقاة على الارض وفتحهـــا ثم أخرج علبة الادوية وترك غرفة القيادة مسرعا . في تلـــك اللحظة كانت الطائرة تحط علـــى آرض مطـــار نيقوسيا ، فتوجهت بنداء للركاب اطلب اليهم عدم التحرك من اماكنهم وشـــد الاحزمة .

عدت من جديد لمراقبة جهاز الرادار ، بينما كان « ابو مشهور » يقف خلف الطيار ويده مشدودة على المسدس .

احسست باليأس . مرة اخرى ترفض سلطات العدو الاستجابة لمطالبنا ... كانت المسائل واضحة ، وعلي ان اتدبر قضية هبوطنا في مطار « ارم » . بدا وجه الطيار مثقلا بالارهاق ، وفكرت باستبداله بـ « صالح » . لكنني صرفت الذهن عن ذلك في اخر دقيقة خوفا مـــن اختلال تـــوازن العملية ... كان مطار نيقوسيا تحت الشمس صغيرا كراحة الكف تحيط به المنازل ذات الطابق الواحد ، والحـــدائق الصغيرة تمتد على جانبيها في توازن هندسي رائع . وجه

المتوسط يطل علينا حارا وصافيا ... يغسل اقدام المدينة بدمه الازرق بينما تلوح من بعيد ملامح المدن العربية .

علا صوت الركاب داخـل الطائرة وبـدأت درجات الحرارة بالارتفاع ... صيحات تنطلق من كل زاوية تطلب الينا السماح لها بالنزول ... كنا جميعا سجناء تلك اللحظة. نحن والركاب وطاقم الطائرة . طلبت الى الطيار ان يتجه بنا الى « ارم » عن طريق « اللد » . شك في داخلي ان لا تقبل سلطات « ارم » الهبوط على اراضيها ... ان لا تجعل ارضها مسرحا لاول واغرب عملية تحويل طائرة تقوم بها المقاومة الفلسطينية . حتى ايام ، كنا بالنسبة للجميع مزحة تاريخية طال وقتها أم قصر ، ستنتهي كما بدأت وكما انتهت ثورات صغيرة قبلها ما بين عامي ١٩٣٦ ــ ١٩٤٨ في الارض المحتلـــة .

ــ مر بنا في سماء الارض المحتلة .

تردد قليلا ... اكـدت باصرار ... ادار المحرك واقلعنا من جديد . خفت الاصوات وعادت السكينة تسيطر على الجو ... سكينة محملة بالانتظار والرغبة بالخلاص .

تبدو بيوت الارض المحتلة صغيرة ومتلاصقـــة ... الشريط الاخضر الساحلي يستحم في احضـــان البحر بهدوء ... هناك ولد أبو مشهور ... هناك يسكن صـــديقي « محمود » يكتب شعره على وجه البحر والشجر وجبال الكرمـــل ...

« هذه حيفا » قالها الطيار دون ان يبدو عليه أي اثر من الانفعال . تذكرت وجه « محمود » يوم مؤتمر «الشباب» في بلغراد وانا اعاتبه لموافقته على الخروج ضمن الوفـــد

« الاسرائيلي الرسمي » ، أمطرني خيبة والما . خفضت راسي حتى لا يلمح الطيار موجات الحزن التي تعبره في تلك اللحظة ... « لقد كتب علينا يا محمود ان نمر بكم والموت رفيق لنا » .

التقيته بعد ذلك في باريس عام ١٩٧٣ عائدا من موسكو . ذكرته بلقائنا في بلغراد . كانت حبات مطر خفيفة تسقط على جبيني والصاعقة التي تهاجمني أبدا في المطر جعلت مني أرملة حزن شفافة حتى الاحتراق . كنا نعبر معا ساحة « السان ميشيل » . وفي اول مقهى صادفنا القيت بنفسي على المقعد ولم احدثه عن تلك التحية اليتيمة التي ارسلتها له عبر سماء الارض المحتلة ومن طائرة تعبر بنا الى قلب الحزن العربي .

بعد عشر دقائق تقريبا من الاقلاع من مطار نيقوسيا سمعت الطيار يتكلم العبرية مع الارض ... طلب اليه « ابو مشهور » بالعبرية ايضا — التي كان يتقنها — ان ينبه سلطات كافة المطارات التي سنمر بها الى خطر الاقتراب منا .

— « ان اية طائرة تقترب منا ستكون سببا في تفجير طائرتنا بركابها » . دهش الطيار قليلا لادراكه ان رفيقي يتكلم العبرية ... سمعته يردد بالانكليزية العبارات التي طلب اليه « ابو مشهور » ترديدها .. في تلك اللحظة كانت طائرتان من طراز ميراج تتركان الفضاء الذي حولنا وتتجهان الى الارض ... عندما ادركت اللعبة التي حاول الطيار ان يقوم بها قلت له :

— اسمع ، ان اية محاولة لتضليلنا ستكلفك حياتك .

سيؤلمني كثيراً ان افجر الطائرة ... لكنني لن اتوانى عن ذلك اذا اقتضى الامر . ارجو ان تكون هذه القضية واضحة في راسك . اتجه الى « ارم » ونبه مطاراتكم الى خطورة اللحاق بنا واعاقتنا .

تلك اللحظة ــ العمر ... تلــك اللحظات السابقة واللاحقة بالموت ، لا شيء يعادل اغنية حماسية يرددهـــا جنود يتجهون الى ساحة المعركة ، مشكلتنا نحن مقاتلـــي مملكة العمل السري اننا لا نستطيع آن نهمس بأصواتنا ...

بدا البحر بحارا كثيرة ومتراكمة منذ الزمن . لمحت ، او خيل الي اني المح الموجات تنهار علـــى الشاطىء ... تذكرت منظراً من فيلم « ألمحاكمة » « لويلز » حيث الموسيقى تلد صورا نواتها الصمت . كم انا عربية في تلك اللحظة : لمحت وجه « محمود » على البحر والشجر ، وكان الفضاء كئيبا . تلك الكآبة المدهشة التي يحني المرء راسه لها ... هاجمتني فكرة الموت مرة اخرى ، تذكرت أن المرء ثوري لانه يحب الحياة ، ولانه يحب الحياة يتعرض للموت ، ولانه يتعرض للموت فان المجردات تأخذ عنده اشـــكالا متجسدة تبعده عن الرهبنة الجسدية ... بل تجعله من اكبر اعداء « الناصري » في رفضه قبلة المجدلية لقدميه بتسام كاشـــف باسم الله . وقنعت بأن اختيار الموت طوعيا مسألة غير معقولة ... يجب أصطناع اسباب غير معقولة له ...

تدخل الطائرة اجواء « ارم » واراها من خلف اشجار الغابات جميلة ... آراها تفتح عينيها وصدرها لي ، انا التي هجرتها دون وداع ... اتوجه بندائي الى قيادة المطار اطلب اليهم قبول هبوطنا ويأتيني الجواب بالرفض ... ثم

يكن لدينا من خيار . فقد انتهى الوقود وحالة الركاب لا تسمح لنا ابدا بمتابعة الرحلة الى اي مكان اخر ... انذرت سلطات المطار بأنني سألجأ للهبوط الاجباري ، وجاءني الجواب بالرفض . طلبت الى صالح ان يساعد الركاب على شد أحزمتهم ويهيء سلاحه ... علينا ان تتم العملية بأسرع ما يمكن وبأقل ضرر . نظرت عبر النافذة الى باحة المطار فلمحت سيارتي « جيب » تقتربان من مدرج هبوطنا ... كررت رجائي للسلطات ان تمنعهما من الاقتراب منا ، هددت بتفجير الطائرة ... غابت السيارتان عن المدرج وبدت المسافة أمامنا واسعة وكافية لاتمام الهبوط .

تم كل شيء بسرعة ، خمس دقائق فقط كنت بعدها مع رفاقي نترك الطائرة بعد ان افرغت من ركابها وزرعت بالقنابل المؤقتة ... وما كدنا نصل الى باب المطار حتى سمعنا دويا هائلا فانبطحنا على الارض ومن خلفنا بدت اعمدة الدخان سوداء ... سوداء كلون المحيط .

آه لو يعود زمن الكرز !

اشعر بالتعب ... الليل في اخره ... المقهى خلفي يغلق ابوابه وصوت اقدامي على الرصيف اشبه بصوت حوافر حصان قلق ... هذه باريس العجوز وقد نامت عبر سهر طويل . النوافذ مغلقة ... الابواب مغلقة ... ارصفة الوحدة هي وطني ، واصدقائي ينعمون الان بدفء فراشهم واجساد زوجاتهم المدللات . البارحة التقيت « محمد » السفير الغاضب ابدا على ارصفة مقهى في « الشانزليزيه » . تحدثنا عن بلاده التي تغط بالنوم ... عن عذابه كمثقف بل عن غربتنا جميعا عن

الواقع العربي الذي اصبح ينكرنا وننكره . مازحت محمد قائلة :

ــ ما رأيك ان نعلنك ملكا علينا نحن مجموعة الصعاليك ؟ سيكون دمك مهدوراً في كل زاوية من العالم العربي .

رد علي بجدية مطلقة :

ــ ستكونين وريثتي اذا قرروا اعدامي !

ــ لماذا اعدامك مرة واحدة ، سيتسلون بتقطيع اطرافك ويشربون نخب نصرهم !

ضحك محمد وبدل الحديث :

ــ اين انت الان ؟!

وقفت على قدمي وقلت له :

ــ كما ترى ، على رصيف من ارصفة المنفى ...

كنت بحاجة للبكاء في تلك اللحظة ، وخفت ان اضم رأسي الى صدره ونبكي معا .

فرانك ... اشعر بالموت

فرانك ... اشعر بالتعب يسري في اوصالي جميعها .

فرانك... باريس جميلة في ظل الصمت وانت بعيد...

اتذكرك يا فرانك ، لحظة فراقنا في المطار، وانت تنتظر الرحيل الى القارة الاخرى ... لقد انحنيت علي هامسا وقلت لي :

ــ انتظريني يا نادية ، ولا تكوني مخلصة لي ، واذا ما شعرت بحاجتك الى النسيان اذهبي الى السين واغسلي جسدك فيه .

هل ننسى ؟ أحقا يمكن لنا ذلك ؟ اسمع دوي القنابل في صمت الليل ... ارتجف ... تتحول المدينة الى مطارات واجواء محملة بالضباب ... ارى طائرات فخمة تقودها

نساء مثلي في هذه الساعة من الليل ... اسمع الانفجارات اري وجهك ... وجه « ابو مشهور » مغمورا بالحـــزن مشربا بالاسى ... البرد يعذبني يا شوقي اليك يا شوقي لعينيك الشبيهتين بالبحر ... يا وجهك . آه لماذا تهاجمنا وجوه الاحباء في الغربة ؟ ألا يكفينا عذاب فقدانهم ؟.

اشد اوراقي الى صدري ... اتجه الى بيتي ... امد يدي فأتحسس مكان الرصاصة التي اطلقت على جســـدي يوم اخر عملية قمت بها . لقد نجحوا يومها في آصـــابتي وقادوني مكبلة الى احد سجون ألمانيا الغربية حيث امضيت ثلاثة اشهر تحت التعذيب ... تسري الكهرباء في جسدي فتضيء عيني ... يمسكون بجديلتي الطويلة ويضربون راسي الى الحائط في محاولة لاجباري على الاعتراف باسم منظـــم العمليات التي اقوم بها . يومها استنجدت بكل الشـــهداء الذين عرفتهم ، وخطرت لي صورة عمار بن ياسر فوق رمال مكة وصخرة كبيرة على بطنه . لقد رفض عمار أن يلفظ اسلامه ... ساعدتني الصورة المشرقة للانسان ان احتمل بشكل افضل حتى أتيح لرفاق لي بعد حملة اعلامية واسعة وعملية جريئة ان يخلصوني من اقبية السجن .

تقول : انسي وتدري أن النسيان صعب .

لنعد ، احبك ، اوه لم اعد احبك . تدري ، ان هذه نهاية العالم ... لقد تبدل الزمن ... أقول احبك ... يرتد صوتي الى حنجرتي وحيدا ودون صدى ، بعده مـــا احببت احدا . كنت أنتحر في اجساد الرجال باحثة عـــن الســـلام .

« ابو مشهـــور »

(عتمة الليل في سهول الشمال تلف كـــل شيء ...

قبلني ومضى ولم يعد ابدا . ما من عائد ليقــول لي انه يعيش ... ما زلت أنتظر ارملة صبر واحتمال ومحبة ... ما زلت انتظر يا عينيه السوداوين ويا صدره العريض ... يا كفيه المعفرتين بالتراب ... يا وجهه الغابي ... يا دمه انا انتظـــر) .

ها انذا رصاصة مثخنة بالاسى ، أعيش لان الموت ليس ملكي ... آكل ، أشرب انام ... احبك ؟! احاول ان أحبك وانتظر عودته . عبر المحطات والانتظار وساعات السفر اردد أسمه اينما كنت .

بيتك في « ساحة دوفين » ونحن نقاتل برد الشتاء ونتحد بجسد ينافي وجه العتمة ... ترفع راسك الي :

ــ كنت زوجـــة ؟

ابتسم وانا احاول اعادة صورة ابنتك الى مكانها على الطاولة ، ولا اجيب .

ــ لماذا لا تجيبين ؟ ذكر انك قلت لي ذلك ذات يوم ... يوم التقينا في مقهى سان كلود .

شعاع الصبح يتسلل عبر النوافذ حاملا معه رائحة السين ... اذار جنية تنوح في الخارج . وفي ذلك المساء ادخل عامي التاسع والعشرين .

ــ لقد كنت ... لكنني نسيت .

ــ مجنونة ! كيف ينسى الانسان مسألة كهذه ، هل كنت تحبينـــه ؟

ــ كنت أحيا معه واحاول ان انسى .

ــ تنسين ... لماذا ترغبين ابدا في النسيان ؟ هل

كنت من الحريم ... هل اجبرت على الزواج به ؟

ـ ابدا ، كنت الزوجة الاولى والوحيدة ، لم يجبرني احد ، لقد اخترته ملجأ ... جلادا ... سجنا كما تشاء .

تصمت وتتبدد اللحظة ... تعود لاسئلتك :

ـ هل تزوجت صغيرة ؟... تعالى الى جانبي وحدثيني قليلا عن حياتك . انا لا اعرف عنك شيئا حتى الان .

ـ ولماذا تريد ان تعرف عني شيئا ؟ الا يكفي أنني معك في الحاضر ؟ دعك من ماضي !

عام كامل مضى ونحن مما نكتشف الزمن وجسدينا والرغبة في النسيان . في مثل ذلك اليوم من العام الماضي التقينا في قاعة المحاضرات في الجامعة ... في مثل ذلك اليوم ابحرنا الى الحياة دون مرأس ودون اشرعة ... ما زالت مراكبنا تسير على هدى الرياح ولا نعرف لنا خليجا ناوي اليه . مركبان تائهان في بحر شديد الملوحة . ان سقطنا ابتلعنا سمك القرش الذي يفتح عيونه علينا بحدة . وان نجونا سنشرب ماء البحر المالح ...

حدثتك عن ابي طويلا ، عن دمي المعتق بالاصل والاشجار ... عن الكذبة الابدية التي عمدوني بها ... حدثتك عن وجه امي الذي لا ينقطع عن الصلاة . أمي تصلي بكل اعضائها ... وجهها صلاة دائمة ورب امي يختلف كثيرا عن الالهة . انه رحيم ومحب وحنون . يسكن في الغابات وبين امواج البحر ... يطعم الاطفال ولا يعذبهم، كم هي مطمئنة امي !

لم أحدثك ابدا عن ماضي انا ... عن مشاركتي في النضال الفلسطيني ... لم اقل ابدا انني جرح دائم . لم

اقل ابدا أن النسيان في اجساد الرجال غدا لذتي التي ابحث عنها . كنت اهرب منك اليك ... من ماضي اليك ... من باريس والغربة اليك . ولقد عمدتك وطنا مؤقتا بانتظار الوطـــن .

اقترب من طرف سريرك ... اقرب جبيني من وجهك ... اقبلك ثم أتجه الى مكتبك ... أبدأ رسالة طويلة الى امي واسمع صوتك مرة اخرى :

ـــ هل نسيت زوجك ؟

ـــ فرانك ! كف عن الاسئلة ! لقد نسيت كل شيء ! لقد صادفت رجلا بالامس في « الكوبول » وحاولت أن أتذكر اين تعرفت الى وجهه ... اخيرا عرفت: في السرير ... كان زوجي الســـــابق !

اسمع صوتك مرتعشا :

ـــ كم انت مخيفة !

أتوقف عن كتابة الرسالة وانصرف الى قراءة كتاب مفتوح أمامي ... اغرق في الجمل والكلمات ولا أعي شيئا ... اقف ، اتجه الى النافذة ... افتـــح مصراعيها ... أردد على مسمعك عبارات تافهة لا معنى لها . تدرك انني رحلت الى عالم اللامبالاة باللحظـــة ... توقـــف اسئلتك ونغرق معا في الصمت .

لو أقررت ضعفي في تلك اللحظة لقلت لك : انني قاتلت واضطررت للانسحاب من ساحة المعركة بعد ان اثخنتني جراحي . لكن رطوبة الصباح جعلتني اتنفس بعمق متذكرة اقبية التعذيـــب في السجن .

ــ فرانك ... انا هنا ، لانني غير قادرة على ان أكون هنـــاك !

كنت قد اقتربت مني ... شددت راسي الى صدرك ومسحت على شعري قائلا :

ــ ايتها الديماغوجية ... هل ظننت انك اضفت لمعلوماتي عنك شيئا ؟

واردفت مازحا :

ــ حقا ، لماذا ابحث عن ماضيك ؟ يكفي انك هنا الان ولا اظن انك « ارهابية مدربة » جاءت لتحويل الطائرات .

طعنتني عبارتك الاخيرة في الصميم ... في العمق... أدرت وجهي الى الجدار حتى لا تلاحظ الدم الذي قفز الى خدّي ... حاولت ان اضحك بصوت مرتفع لاغطي على لحظة الاكتشاف تلك ...

مرة اخرى في بيتك بـ « ساحة دوفين » .

تمد يدك الى شعري المحلول على كتفي محملا برذاذ المطر وتسألنـــي :

ــ ماذا تريدين مني ، هل تحبينني حقا ؟

واجيبك بهدوء :

ــ لا ادري ، ربما رفقة طريق ...

يتحول وجهك الى سجابة حزن :

ــ واذا احببتك ايتها العنيدة ؟

ــ تأتي معي الى الشرق ... ما رايك ان نفجر ثورة على طريقتك وطريقة صاحبك الذي مات بين الغابات ؟

تحول وجهك الى غضب وصرخت بي :

ـــ مجنونة ، اما زلت حقا تعتقدين بكتاباتي الاولى ؟

ذهلت للمفاجــأة :

ـــ طبعا ، واظهر انها ستبقـــى الشيء الوحيد الصالح لتصحيح رعونة هذا العصر !

ـــ ولكنني انكرتها بعد تجربتي في الكونغو ... لا يجوز ان نرسل بالبشر الى الموت ... هذا ابتزاز رخيص لحياة البشر ... البطولة شيء تافه . التاريخ لا يصنع في فرن .. التاريخ هو الاستمـــرار والمراحل الطبيعية . لا يمكن ان نخلق رجلا في عشر سنوات ، لكننا نقتل رجلا برصاصة ...

لم ادعك تتم جملتك ... اشعر بواجب الحساب ... اقــول لك :

ـــ عن اي تاريخ تتحدث يا فرانك ؟ التاريخ في اوروبا مسألة اخر ى، ثورتكم البرجوازية اخر ثورة في تاريخكم ، وعلينا ان نصنع ثورتنا في العالم الثالث . علينا ان نلوي عنق التاريـــخ !

تنفجر بغضب حقيقي .

ـــ التاريخ لا يلوى من عنقه ... التاريخ يأخذ مجراه. لقد حاولتم في الشرق ، فماذا كانت النتيجة ؟ هل تعتقدين ان وضع مسدس في رأس طيار واجباره على تغيير اتجاهه ... ارهاب مئات الارواح ... القتل ـــ كـــل هذا يغير الظروف ويبدل التاريخ ؟ لقد تحول ثواركم الى قراصنـــة جـــو !.

اشعر بالتحـــدي ... بالطعنـــات في الصميم ... وبالرغم من انني مقتنعة بأنك لا تعرف شيئا عن ماضي تعود الي روح المقاتلة واحس انك تعنيني .

— انك تعني الفلسطينيين من غير شك !

— نعم ، تعرفين رأيي جيداً في اعمالهم . الفلسطينيون وغيرهم ...

— دعنا من هذا النقاش يا فرانك ! لا يحق لبشر مثلنا يحيون في السلام والرفاهية فرض قوانينهم وقيمهم على شعب دون أرض .

عندما تهم بالرد علي ، أنفجر انا الاخرى بحقد لا أدري من اين جاءني في تلك اللحظة :

— اسمع يا سيد فرانك ! انت هنا في بلادك ، ودعت نضالك وانتهى بك الامر الى سياسي محترف . انتم الاوروبيين جعلتم من الشعب الفلسطيني عاهرة تتسكع على ابواب المؤسسات الدولية مطالبة برغيفها وحقها . لماذا لا يحق لهم ان يصنعوا من عالمكم بيوت دعارة ؟

تحولت الى مجنون :

— اميركا اللاتينية خير نموذج على فشل « البؤر الثورية » . أن عليكم بالانتظار . اما انا فلن اعود مرة اخرى الى تلك التجربة التي دفعت ثمنها غاليا . خمس سنوات من عمري وراسي الى الجدار . انا فرنسي وساعيش في فرنسا واناضل لتغيير واقعي الفرنسي .

— كم انت فخور بفرنسيتك يا عزيزي فرانك !

— جدا .

— وحرب الجزائر ... قصف دمشق ... مذابح الفيتنام . حقا انك لثوري رائع !

— لقد كنت في الماضي اخجل من اصلي ، خاصة عندما عرفت ان بلادي قد عذبت واضطهدت شعوبا اخرى . اما

الان فانني اشعر بالفخر لانتمائي اليها ... انها تحترم حرية الانسان .

صمت مهاجر من كوكب مجهول يخيم على راسينا . يفرز جسدينا الاصمين ... يقرر برومانسية عجيبة ان يبعدنا عن ماضينا ... نقتلع عيوننا من ذلك الماضي ، فكلانا يكره الحديث عنه . يلعب الصمت اوهاما ويعطيني الاحساس بالسعة . يتمزق النهار والليل في صدرينا ، ويبتعد الى ساحات المجهول . اوه ، لو نعود معا الى باريس بعد ان يبيض شعرنا حيث امام سوق « الهال » القديم وفي بار « مارلين » نحتسي كاسي براندي ونشتم الحضارة الانسانية كلها .

اسمع رنين الهاتف كنباح جرو جائع ، من في هذه الساعة المبكرة من النهار ؟ أسرع اليه ويأتيني صوت « اوليفييه » :

— هل استطيع ان اتكلم مع فرانك ؟

قبل ان اجيبه يتابع :

— نادية ، اليس كذلك ؟ هل عرفتني ؟

كدت اقول له : نعم عرفتك يا صاحب الملايين ... يا صاحب القصور والثروات ، عرفتك ... هل هناك من صفقة ثورية جديدة ؟. لكنني ظللت صامتة وأومأت براسي لك لتأخذ السماعة .

استمر في ارتداء ملابسي ، واسمعك من غرفة النوم، تذبح ماضيك وتصلبه على جدران معابد بوذية حيث يخفض المصلون رؤوسهم ، بينما الاله في مكان ما من السماء ينظر اليهم ضاحكا ... انت المعبد والالهة والصلاة

والماضي المغدور ... صدر الرفيق المطعون في ليلة حارة ... اشجار الموز الحارقة الخضرة .

ـ نعم يا اوليفيه ، ما زلت اكتب مذكراتي عن فترة السجن .

ثم تضيف :

ـ نادية بخير ، لقد بدأت تهتم قليلا بتاريخ الزنوج .

يتقطع الحديث وتسود فترات صمت من جانبك ... اتذكر وجه أوليفيه المتورد كوجه أثرياء الحرب ... ضحكته تلك التي اثارت في داخلي الرغبة بالتحدي والصراخ يوم التقينا معا في مطعم « تور دارجنت » . قدمته لي وضحكة تعلو وجهك :

ـ اوليفييه الاشتراكي الراسمالي بامتياز !

هززت رأسي يومها ولم يخطر ببالي أن اسألك : كيف يمكن أن يكون المرء اشتراكيا وراسماليا بامتياز . فلم تكن المرأة ـ الشجرة قد استيقظت بعد . كنا ما نزال في بداية علاقتنا ورغبة النسيان تطوح بي كحصان جامح . في المرة التالية ، وكان ذلك في بيت « كلارا » . الاصدقاء حولنا ... ثوار محترفون ... كتاب وشعراء يتحدثون عن كل شيء الا عن الشعر ... سيدات جميلات تفوح من جلودهن رائحة العطر وعفن الحضارة . كنت بينكم كلحن شاذ ونافر ، اغرق في الصمت واتأمل وجوهكم المطمئنة لمصير مدن الرفاه واللا مسؤولية . قال لي أوليفيه : « ما بك قلقة لمصير ثوار ايرلندا ؟ » وكنت احدثه عن فلسطين . ضغطت « كلارا » على يدي وهي تضحك بصوتها الشبيه بقرع طبول افريقية :

ـ انه مخرج سينمائي مجنون وصاحب أكبر مصانع للزوارق الحربيــة !

لم استمر في النقاش ، بل ازددت التصاقا بك ... واكتشفت أن اصحاب مصانع الحــرب يحبــون الرســم والموسيقى وعشرة الثوار المتقاعدين امثالك .

يومها لم يكن ذلك يعنينــي ، كنت راغبة بالنسيان والحصان يطوح بي في وديان الصمت .

في طريق عودتنا من بيت « كلارا » قلت لك :

ـ لا افهمك ابدا ، كيف يمكن لثوري مثلك ان يحتمل صحبة تاجر حرب ؟ انك مصالح من الدرجة الاولى .

وبلامبالاة عرفتها فيك اجبتني :

ـ هل تعتقدين أن علي ان اعاشر الثوار فحسب ؟ انني لم استطع ابدأ كسب ثقتهم ... لقد رفضوني كمثقف!

اوليفييه على الطرف الاخر يحدثك ، ربما عن مشاريع جديدة تتناول زوارقه وحروب الارض كلها . عن افلامه .. عن موسيقاه ... وعن والده الثري حتى التخمة . ادخل مكتبك ، تقع عيناي عليك خلف الطاولة وراسك بين يديك وسماعة الهاتف تنفث دخانها في فضاء المكان . التقط عباراتك:

ـ في نهاية الاسبوع ، لا ... لا ... الكتاب سيصدر في الشهر القادم ... ماذا ؟.. حول تجربتي في الكونغو ... أيام السجن ... اوه ، أبدا الربح قليل ، ودار النشر لم تكن معي كما يجب ... ماذا ؟ ستقضي عطلة نهايــة الاسبوع على يختك ... سآتي مع نادية ، ولكن حذار من النقاش السياسي . لم تنس بعد لقاءكما في بيت « كلارا » .. لا ، يا عزيزي اوليفييه ، انها تلميذة قديمــة لي ... يســارية متطرفة ...

اجلس على مقعد مقابـــل مكتبك احدق فيـــك ... تتسمر عيناي على الوجه ... والرأس المنكس بين اليدين ... الصورة القديمة لمناضل سجين في بلاد كانت الثـــورة فيها على الابواب . صورتك تلك يوم قبض عليك وانـــت تودع رفاقك في الغابات ... صورتك في ســـاحة المحكمة وحولك محاموك الذين توافدوا من كل انحاء العالم للدفاع عنك ... كنت الرمز واللحظة الحقيقية للموت ... الصورة هناك على الجدار ، ووجهك نقي كوجه طفل ... الصورة امامي وراء مكتبك وصفقة لقائك مع اكبر مستغلي الطبقات التي دافعت عنها وتكلمت طويلا باسمها . اغمض عينـــي يا فرانك ، وارفض الصورة الحقيقية . اتذكر ليلة خرجنا متظاهرين لاجلك نطلب بأصوات يمزقها الايمان والحـــب ان يسمح لك بالدفاع عن نفسك ... اذكر دم من سقط منا على اسفلت الشوارع وظلت عيناه معلقتين بك : تحرقني الذكرى ... اشعر بغصة في حلقي .. يدور راسي ... ارى ملايين المناضلين السابقين ورؤوسهـــم تستند الـــى ايديهم ، وعلى الطـــرف الاخر من يقايضهم علـــى ماضيهم وحاضرهم وهم مستسلمون للتيار .

لماذا كنت تسند راسك الى يديك ؟ على هذه الصورة رايتك للمرة الاولى في حياتي . تماما كما كنت خلف مكتبك وانت تحدث اوليفييه . احترق الزمن والمسافات والرجال.. احترقت انا ماضيا وحاضرا ...

اقتربت منك بعصبية وجنون ، ونزعت راسك عن يديك ثم اتجهت الى الجدار بدم يغلي حقدا ، ومزقت اعلانا يمثلك في ساحة المحكمة وراسك بين يديك ووجوه الحضور مشدودة اليك . كدت اصرخ في وجهك :

ــ لا يحق لك ان تسند راسك الى كفيك ، انك تدنس

احداهما بالاخرى . فاوض يا عزيزي الماركسي المحترم وأنت على صورة جديدة !

الصوت يخونني .. أنظر الى بحار « سيزير » على الجدار وهو يصارع موج بحر ما من بحار هذه الارض . اشعر بشوق لان يلتهب البحر وان تشتعل الحجرة التي تؤوينا ... وقود العالم كله قد نفد في تلك اللحظة . الساعة تقارب الثانية عشرة والارهاق يجلدني . احمل السكين التي تستعملها لفتح صفحات الكتب .. اغرز سكيني في صدر بحار « سيزير » المسكين ... امزق اعضاء القارآت الحزينة المصلوبة على جدرانك ... ترقبني بدهشة فتسرع في انهاء مكالمتك .

تناديني فلا اجيب ... لم اعد اسمع ... عاد الرصاص ليسكن سمعي وعيني وجسدي ... انا شيء من الرصاص والصمت ، اركض باتجاه الباب دون ان أعير تساؤلاتك آي انتباه ... انطلق الى الشارع ... الى المدينة ... الى السين ... اجري مجنونة ... طلقة حقد ... عجينة صمت . عند اول « شاليه » القي بنفسي على مقعد حجري واسمع بكائي يختلط ببكاء الخريف والريح . ابكي واتذكر ماضيك ... ابكي واتذكر حاضرك ... ابكي والثم وجه « ابو مشهور » الاتي عبر الذاكرة . اشعر بالراحة قليلا .

لقد انتهيت مني في تلك اللحظة ، احسست عبئا ثقيلا ينزاح عن كتفي ، كان علي ان اقف بينك وبين ماضيك فأحررك منك. ان اعيد لك وجهك الذي كان ... باختصار ... ان أنقذ فرانك من فرانك . فرانك الذي الهب ضميري

بكلماته حين كنــت اطرح اسئلتي حول مستقبــل الثورة وضرورتها في العالم الثالث ، وفراتك الذي لقيته بعد سنوات وقد قتلته الحضارة الاوروبية والسلام الموقت لبرجوازيته في وقت يشتعل فيه العالم صراخا وحرائق . لا شيء يشبه شيئا . . . لا صورة تشبه صاحبها . . . ما بين الواقع والخيال مسافات من الكذب والرياء والخديعة . ونحن مجموعــة البلهاء الساذجين نصدق كل شيء . لماذا صدقت كل ما قيل لي في المدارس والاحزاب ومنظمات العمل السري ؟. لماذا اعتقدت ان البطولة تنام في صدر رجل في هذا العالم ؟.. كل شيء باطل وقبض الريح . . . البطولة كذبة كبيرة نحن بحاجة لتصديقها . . . الشجاعة كذبة اقل خطرا نمحو بها جبننا وضعفنا . . . والحب هو الجريمة التي نستــر بها عورة التملك والانانية والرغبة بالاستعباد . . . كــل شيء سقط وانتهى في تلك اللحظة . ما زلت اصدق ما قيل لي ؟ اما زلت اعتقد بصلاحية هذا العالم للمضاجعة والفــرح والغنــاء ؟

أصرخ عبثا ، محاولة ايجاد الاعذار لك . . . الاعذار الكثيرة التي بحثت عنها من اجل نفسي اولا .

« انت على خلاف مع رفاقك ولا يمكن لك الاستمرار بينهم ، أنكم لا تملكون التصور نفسه للثورة » .

« أنت شريفة مع نفسك ، لا تقبلين بالتحول الى مادة استهلاك اعلامي رخيص.» .

« الثورة قد انتهت بتنازلات القادة » .

«لقد فقدت جزءا من حياتك وأنت تبحثين عن ذاتك» .

هذه الاعذار كلها تمددت في الذاكرة يوم قررت الافتراق

عنهم ... يوم تركتهم تحت نيران « عينتاب » يوم هجرتهم لاكون زوجة لمهزوم مثلي . لا بد وان جسد « أبو مشهور » الاسمر قد مزقته قنبلة ما وتطايرت ذراعاه في الهواء لتكتب لي سلاما اشعر الان برائحته ... بعفنه ... بأقمطتـــه التي تشدني الى الارصفة والمقاهي ومدخني الحشيش . انا هنا جمرة ثورة منطفئة وانت هناك مسرحية ثورات . هكذا تسقط الاقنعة في لحظات الكشف الالهي ... ما زلت أؤمن بالالهة ... ما زلت أؤمن بالمعجزات الخارقة ! لاقل انني بحاجة لهذا الايمان عله يخلصني من جحيمك ومن صمتك المضني ... يقترب مني احد الصعاليك ... يصرخ بي عبر الخمرة التي يختلط بها : « اعطيني قليلا من النقود ، سأسكر هذا النهار حتى ارى باريس حقول مرح .. » . امد يدي الى حقيبتي وابحث فيها عن بقايا تنازلاتنا التـــي رغبنا أو لم نرغب بها ... اعثر على قطعة نقود فضية القي بها الى السكير المحترم ... انه اكثر احتراما من ثـــوار متقاعدين وهاربين يبحثون عن النسيان . يأخذ قطعة النقود ويمضي الى المجهول . اجمع جسدي ووجهي وخيبتي وانطلق الى ساحة « السان ميشيل » ... عند مكتبة « جيلبير » ارى وجها اعرفه : « احمد » في هذه الســـاعة المبكرة من النهار ؟ لا بد وانه يبحث عن « ماركس » الذي يحلم بذبحه بعد كأسي ويسكي ... كم اقلقني وجه احمد في الماضي وحيرتني احلامه التي يجمعها في داخله كاسطورة ثم يلقي بها في وجوهنا بعد ان يسكر ... يقترب مني :

ـــ ماذا تفعلين في هذه الساعة المبكرة ؟ لقد تعودناك متسكعة في اواخر الليل .

لا اجيبه ... اظل صامتة ... يلحق بي الى زاوية الشـــارع :

ـ ما بــك يا نادية ؟

يمسك بذراعي ونعبر معا اشارة النور ... ندخيل مقهى يضج بعمال الارصفة ... القي بنفسي على مقعـد خشبي عتيق ، اسمع تنفس باريس في صدري ... دخـان المصانع وحرائق البترول ، يأتي الخاد م... يسألني عما ارغـــب :

ـ كأس براندي .

يحدق بي احمد بفضـــول :

ـ منذ متى وانت تتعاطين الكحول في الساعات الاولى من النهار ؟ هل تحولت الى سكيرة ممتازة مثلي ؟

أوه لو يدري احمد انني تحولت الى رصاصة لا قدرة لها على الفعل ... لو يدري انني املك الان كل شيء ... املك العالم ووطني وجسدي ... اذبح العالـم ووطنـي وجسدي ... انا خائبة ، وانتهى كل شيء .

ارفع كأسي الى الاعلى واصرخ كمجنونة :

ـ في صحتك يا احمد ، سنذبح صديقنا ماركس ، ولكن على طريقتنـــا !

هل تعرف احمد ؟ التقيته مرة في بيتي ... انه يتحدث عن هيغل ويسكر ... عن « تشي » ويسكر ... يتحدث عن « فرانكفورت » ويسكر . في نهاية الحديث يسقط احمد في كأس الويسكي ولا يخرج منها ... يتحدث بعـد ذلك عن الفلسطينيين وبيروت وثورته هو ... تذكره جيداً . احمد هو المأساة العربية بكل صورها ، اتذكر انك قلت لي

بعد سهرة معه : كم هو شقي ذلك الانسان ! سيظل يتحدث عن كل هؤلاء ولن يكتب شيئا . . . الكتابة بحاجة الى الصمت. نعم يا فرانك ! الكتابة بحاجة للتآمر ، والتامر لا يتم الا بالصمت ، وأحمد لا قدرة له على الصمت والتامر . طفل يلعب بالنجوم ويعيد ترتيبها على طريقته ... كنا نضحك من احمد عندما يعلن لنا هكذا وعلى رؤوس الاشهاد عزمه على ذبح اوروبا بريشة طائر ... نضحك ونميل على بعضنا هامسين بنكات تافهة . واذكر ان صديقي « محمد » قال لي ذات ليلة :

— هل ستجدي ارض تتسع لبقايا جثث الفلاسفة الذين ذبحهم هذا المساء ؟ انظر الى وجهه في تلك الساعة واتذكر انني ضائعة وخائبة ، وعلي أن انتقم . انا التي اعتقدت في غمرة قهرها ان الثورة فعل حضاري ، ونحن شعوب القات والحشيش غير قادرين على صنعها وهي لكم ... يوم ضاجعتك للمرة الاولى لم اكن أضاجع دما ولحما ، كنت اضاجع حديدا ورصاصا وغابات ... ويوم قبلتني للمرة الاولى لم أكن اقبل شفاها بل كتبا ونظريات ، ويومها كنت سانجة واحب الكتب .

— في صحتك يا احمد وصحة ما تنوي كتابته عن السيد « هيغل المحترم » ، سنحتفل معا هذا المساء بذبح السيد « ماركس » !

حزن يطوف بوجه احمد ويضع كأسه على الطاولة ، يسألني :

— كيف حال فرانك ؟ اما زال في باريس ؟... لقد علمت انه هجر زوجته بسببك . اخباركما تملأ الصحف .

هل اراد أن يطعنني كما طعنته ؟ ومن قال أنني كنت ارغب في طعنه ؟ هل فهم احمد انني اهزأ منه عندما تحدثت عن الهتكم جميعا ... هيغل ، ماركس .. نيتشه ، آلى اخر هذه القائمة من الاسماء العجيبة ؟ آبدا ، ليست القضية كذلك .

ـ احمد ، دعنا من فرانك ! لماذا لا نتحدث مثلا عن تطور الزراعة في « ابو ظبي » ؟

تطل نظرات احمد من عينيه أسئلة محشوة بالاسئلة :

ـ ماذا دهاك ؟ لقد تغيرت يا نادية !

ـ اوه ، احمد ! دعنا من ذلك ... أسألك ، اما زلت تعتقد بامكانية الثورة في بلدان الارهاب ؟

حاول ان يلحق بجنوني ويبدو عاجزا .

ـ تبدين غريبة هذا الصباح .

أصرخ بحدة ... يختلط عوائي بصوت الخادم الذي جاء يطالبنا بدفع الحساب .

ـ قل لي يا احمد اذا كنت ما تزال تؤمن بالثورة ..

يجيبني بدهشة :

ـ نعم ، لم تتغير قناعاتي .... أن الموت ضرورة من اجل ....

يتقيأ امامي اكاذيب المبادىء والثورات ... ابحث في وجهه عن زاوية صدق اركن اليها ... لا شيء ... لا شيء . اقول له بهدوء يشبه سكرات النزع الاخيرة :

ـ هل تعرف ؟ لقد قتلت فرانك هذا الصباح !

يصعق امام هدوئي :

ـ ماذا تقولين ؟ ... مجنونة ! لماذا قتلته ؟

لن اشرح له أبدا ... ما الفرق أن اقتلك او أدفنك حيا ؟... يظل الصمت بيننا ... أحس براحة عجيبة . لقد تخلصت منك ... يأخذ بيدي ويجرني الى أول سيارة اجرة، يلقي بي داخلها ويستقر الى جانبي ثم يطلب من السائق الاتجاه الى بيتي ... أسمع عنوان سجني كأنني أسمعه للمرة الاولى في حياتي . في الماضي كنت أتجه أليه بفعل الغريزة ... انام بفعل الغريزة ... آكل وأشرب واحب واضاجع بفعل الغريزة . ولكن لماذا هذه الصحوة في دمي ؟ نصعد معا السلم الخشبي ... امد يدي فأبحث عن المفتاح ... اعثر عليه كجثة طفل في مقابر مهجورة ... ادخل ... ندخل معا ، يحاول مساعدتي على خلع معطفي ويمددني على السرير .

ـ قولي لماذا قتلته !

تروقني المسرحية والممثلون ، يختلط النص والمسرح ، اظل صامتة . الهاتف مرة اخرى ... يرن الهاتف بشدة . من يهاجمني في هذه الساعة ؟ يرفع أحمد السماعة ويأتي صوتك :

ـ أريد ان اتحدث الى نادية .

أتناولك جثة هامدة ويتفجر الغضب عبر الاسلاك ... يضحكني غضبك . اما زلت تعرف الغضب ؟ تريد أن تفهم لماذا فعلت ما فعلته ... لماذا مزقتك صورة وتاريخا ... لماذا طعنت صدر صديقي المسكين « بحار سيزير » ... لماذا اطلقت صحوة جنوني في فضاء بيتك الميت الحي ، لماذا؟ من الصعب ان اشرح لك ... من الصعب ان اقول :

انك ... ولكن لماذا اقول ؟ لم يعد يهمك ان تفهم ...

— فرانك ، انا ميتة ، لقد أعلنت ذلك ... اترك اي لحظة هذا اللقاء مع الموت .

نضـــع السماعـــــة معـــــا ، انظـــر الـــى لحظة هذا اللقاء مع الموت . نضع السماعة معا ، انظر الى وجه صديقي الذي تحول الى اكثر من سؤال ... اشـــعر برعشة برد ... ارتجف ... يهرب الماء من جسدي وعيني واذني ... أرى نفسي بئر ماء تنضح بحزنها ... اســـمع صوتا غريبا في الغرفة . صوتا شاذا وغير مفهوم ينطلـــق من خلف المدفأة الغازية ... من اسفل الحائط الذي اخترته ليكون لي وطنا . زرعت عليه خارطة بلادي البعيدة ووجه امي وابي وبعضا منـــك . اسرع الى المـــدفأة واتظاهـــر باشمالها ... انظر خلفها ، ارى حشرة كبيرة ســـوداء قد بدأت بقرض الجدار ... ارتعش اكثر .. تتزاحم الاسئلة في راسي « منذ متى والحشرة تقرض الجدار ؟ » « منذ متى وهي تسكن حجرتي ؟ » « منذ متى ... أعود لنفسي » .
ان الجدار عتيق ... خشبي عتيق وهي لا بد واصلة الى خارطة الوطن ... لا بد ستهدم الجدار ... ارفع كتفي بلامبالاة واقول في داخلي : « الجدار ... عتيـــق ولست التي بنتـــه » .

اتجه الى المطبخ ... اصب قدحي ويسكي لي ولاحمد اناوله الكأس ، واجلس على حافـــة السريـــر . ارفـــع يدي بدم الصحوة :

— في صحتك وصحة الصعاليك والمشردين امثالنا !
شيء اكبر من الخوف يرتعش في داخلي . ويفهم احمد انها لحظة صحو عابرة لا بد آن يأتي بعدها تخدير النسيان ... ربما كنت الوحيدة التي تشدها الكحول الى الصحو

... كلما غرقت في كأس جديدة أصحو مئة عام ، والحياة اليومية التافهة والعادية تسكرني ، بل تقتل انسانيتي .

نتحدث عن لبنان ونسكر ... نتحدث عن فلسطين ونسكر — عفوا نصحو — نتحدث عن الثورات المطعونه ويقتلنا السكر . ابدا لا اتكلم عنك ، لقد دفنتك ذلك الصباح واسترحت ... ظننت انني أنتهيت منك ... صدقت اللحظة واعتبرت اللذة العابرة للخروج من بئر النسيان لذة ابدية ... نظل نشرب والنهار ينسحب ببطء من الرماد واجسادنا والعالم ... يمشي النهار ابدا باتجاه الليل و لايقف ليقول لنا أنه يمشي ... ضجيج السيارات يصلنا من شارع « الجنرال لوكلير » فيبدد وحدتنا . كنا وحيدين في تلك اللحظة ودون أوطان او مدن ... دون ثورات أو نماذج ثورية .. دون ماض أو بطولات لم نقم بها او قمنا بها لنقتل مللنا ... حاولت ان اقتلعك من داخلي والتي بك الى الصوت الذي كان يقوى ويقوى ويأتيني من خلف المدفأة فيتآمر على سكينتي .

اقف فجاة وانا اترنح بعد زجاجتي ويسكي « دوبل » والقي خطبة عصماء مفادها : لا ثورة ولا ثوار ... بل اناس عاديون يعيشون الحياة بصمت . انها البطولة ان تعيش حياتك بشكل عادي ! كم كان ابي بطلا عندما قرر ان ينجب تسعة اطفال ويربيهم ... عفوا لم يقرر ذلك ، بل اتينا الى الحياة دون قرارات ... هزىء احمد من اكتشافاتي ثم تركني ومضى .

اغلقت النوافذ والابواب ... تعريت امام المرآة وتفقدت اعضاء جسدي عضوا عضوا ... اخافني الزمن

الذي بدأ زحفه على وجهي ... رأيت الزمن حول العينين ... سمعت صوت الحشرة يهزأ مني : « ستموتين ايتها السيدة الجميلة ، ستموتين دون ان تجدي لك وطنا ! »

زعقت كالمجنونة واسرعت احطم المرآة التي ترسمني ... رأيت نفسي شعبا ممزقا ... بقايا رماد ...

يظل الصوت مستمرا في عوائه والمرآة تحولت الى مرايا . في الماضي كنت أعشق المرآة ، ومعاهدات الصلح التي يعقدها المتقاعدون مع ارواحهم ... في الماضي كنت اوافق على صورتي ووجهي في المرايا ... في العيون ... في وجهك انت . لكن تلك اللحظة جعلتني اكره نفسي والمرايا واكرهك .

قرع خفيف على الباب ... اترك حياتي خلفي رهينة قطع الزجاج والجدران وبيانات الحشرة ... اتجه كدمية مسيرة فافتح ... تبدو امامي وشريط يلفه الضباب والنسيان يشرنقك بشيء من الرماد ...

— ماذا حصل ، ولماذا فعلت ما فعلته ؟

لا اجيبك بشيء ، اتجه الى السرير والقي بأشلائي ... اسمع صوت « ابو مشهور » يختلط بصوتك ... بصوت الحشرة ... يهتز الوطن على الجدار وأنت مسمر في الزاوية ... رغبتان تتنازعانني ، احداهما تصرخ بي : « ايتها الجبانة ! كفي عن الهرب ، الى اين انت ماضية ؟ أتهربين من جلدك ؟ » والرغبة الاخرى تطلب الي ان اكف عن التساؤل واتجه اليك فاغرق في جسدك وانسى صحوي . اعوض بك ثوريا متقاعدا عن الفعل الثوري الحقيقي الذي تحتم علي حياتي السابقة ان اعيشه .

« عينتاب » خارجة من صدر المتوسط ومتجهة الى صدري ... تقبلني بشفاهها ، تدخل في غابة الجسد ... تسألنـــي : « الى اين انت هاربة ؟ »

أخاف أن يتفجر راسي ويهتز الجدار ... ان تصل الحشرة الى الوطن وتبتلعه ... اخاف أن اركض الى درج مكتبي فأخرج المسدس الذي تراكم عليه الغبار منذ زمن ... منذ كنت امراة محبة . المسدس الذي رافقني اينما أتجهت كأيقونة ... لقد كدت انساه خلال رحلات النسيان الماضية كدت أنسى الرصاصات الخمس التي تستقر في جوفه فتجعل منه خلاصا لي ... خلاصا من الموت البطيء . اهم بفتح الدرج فأرى يدك على يدي باردة كالثلج ... انظر اليك .. تجرني الى السرير ونبدأ معا رحلة اخرى من رحلات الجسد والنسيـــان .

عندما حاولنا ان نكون معا ، أو عندما حاولت ان اكون معك ، نسيت كل شيء . وبعد ثوان تحولت الى قطة اليفة تمسح جروحها في صدر غابة . نسيت للحظات الحشرة ووجه « ابو مشهور » ومذابح احمد الشهيرة ... خرج المسيح من قبره ... نزل عن الصليب . ووشحتــك بصورته ثم انتقلنا معا الى قمة موج مرعبة قذفت بنا الى الشراشــف والرطوبة المستحبة لاعماق المحيط . شددت بك ! لي وكأنني اتمسك بصخرة ... بجذع شجـرة خوفا من الظلمـــات الاسطورية للمحيطات ... نسيت ... نسيت ... نسيت.

يتسلل الليل الى الغرفة ... جثتي وجثتك تطوفان الزمن بحثا عن السكينة ... عيناي معلقتان بالسقــف ،

اشعل الضوء ، يفاجئني وجهك ووجهي . أمسح بيــدي على صدرك ... اقــول :

ــ لماذا اتيت ؟

تسكتني بقبلة وتسألني :

ــ ما بك ، ألا ترغبين في النوم ؟

اظل صامتة واتقلب في الفراش . منذ ودعتهم وانــا رهينة الارق . استيقظ في الليالي الباردة وانطلق الى التسكع في الشوارع حتى يضنيني التعب ... اعود مرهقة فأغرق في الطعام واهرب الى عملي ... تسقط حبال الضوء على جسدينا ، ادير وجهي للجدار متفادية عينيك ... متفادية اسئلتك . كنت عارية من ثيابي . ولم أفطن الى انه لا يحق لي ابدا ان اكون عارية ، هذا ما قاله لي الطبيب الذي جهد لاخراج الرصاصة من كتفي عقب آخر عملية قمت بها ونجح احد رجال المخابرات الاسرائيلية باصابتي ... تقع عيناك على مكان الجرح ... أسمع صوتك مندهشا وحانيا في وقت واحــد :

ــ ما هذا في كتفك اليمنى ؟

يمر الصمت واتذكر ، احاول استرجاع انفاسي ... احاول استعادة حبال الاكاذيب التي عشتها ... أوقــظ المرأة المقاتلة وحذرها :

ــ آه ، لا شيء ... اثر عملية جراحية اجريت لي عندما كنت صغيرة عقب سقوطي عن الفرس .

ــ وهل كنت فارسة ؟

ــ اركب الخيل لكنني لست بفارسة .

يظل وجهي في الجدار واخاف ان التقي عينيك، لو فعلت

لادركت انه لا يمكن لمقاتل اخفاء وجهه عن مقاتل اخر ... لا يمكن ان نخفي اثـر الرصاصات لا عن طبيـب ولا عن مقاتل . هل صدقتني ؟ غير مهم ... لقد تظاهرت بذلك . اسمع انفاسك ... احسها على كتفي في مكان الرصاصة. احس رغبة عميقة بالبكاء ... بالصراخ ... بالغناء ... بأن اقول شيئا ، اي شيء . التفت اليك واتذكر ما نسيت :

ـ فرانك ، لماذا لا تتحول الى شيء شبيه بالوطن ؟

يطل استغراب حقيقي من ملامحك ، لماذا اهذي في لحظة العناق والحب ؟ لماذا اعكر استسلامك بصورة اوطان وغابات ونخيـل ، لماذا ؟

ـ حاولي النوم ، تذكري بعضا من حكايا امك ... انك متعبة وعلينا ان نغادر باريس لايام ، علك تستريحين.

يبدو انك لم تدرك ان المأساة في داخلي احملها معي كيفما اتجهت ... لا يجديني ان اغادر مدينة او ادخـل اخرى ... لا يجديني ان اعيش في غابـة او في جبل ... المأساة معي ... جزء مني .

اتذكر حشرتي الحبيبة . نعم انها عزيزة علي ! فهي الوحيدة التي تصرخ بصدق ، اسألك :

ـ فرانك ، الم يحصل ان اكتشفت حشرة ما في غرفتك في السـجن ؟

تبتسم ويشتعل وجهك بالماضي :

ـ في السجن ؟ كنـت اتسـاءل عن صلاحيـة العالم الخارجي وفائدته ... كنت امارس بعض طقوس الفـرح ... اتذكر عيني « سيمون سينيوريه » الجميلة واحلم ...

ـ لماذا لا تعود الى العالم الثالث ؟ ما الذي يشدك الـى فرنسـا ؟

ــ نامي ... انك متعبة ... فرنسا وطني ولي فيها اشياء كثيرة .

ــ لك فيها التخمة والرخاء ... لك فيها بيتك المؤثث جيدا في جزيرة « السيتي » ... لك فيها ....

ولا تدعني اكمل عبارتي :

ــ لي فيها كل شيء ، اسمي ... كتبي ... الطبقة العاملة التي اناضل من اجلها .

ــ أن الانسان هنا يعيش ويناضل ليأكل قطعتي بفتيك بدلا عن واحدة ، لكن الانسان في العالم الثالث يقاتل ليعيش . لماذا عدت من القارة السوداء ؟

تظل صامتا ... تدير وجهك الى الجدار الاخر وتنام.

منذ تلك الليلة والحشرة ترافقني اينما اتجهت ... احاول عبثا نسيانها أو الخلاص منها ... احاول تجنبها والالتصاق بشيء اخر يبعدني عن البيت ... أرى أصدقائي السابقين واحدثهم عن الليل . اكتب ... اذهب اليك ... لكن الحشرة ورائي ... امامي ... الى جانبي ... في كل مكان .

واذهب الى صديقي الباهي واقص عليه امرها . نفكر معا بطريقة ما تساعدني على الخلاص منها ... نجلس في زاوية مقهى « سان كلود » ونأخذ اوراقنا ثم نرسم عليها خرائط كثيرة اشبه بخرائط عسكرية ... نسجل احتمالات الربح والخسارة لمعركة سنخوضها مع الحشرة ... ندرس امكانية نقلها الى مكان آخر ... او تسريحها من جيشي ، عفوا من حياتي . أرسالها الى سفارة ما في الخارج لتمثلني

... عفوا لتمثل مملكة الصعاليك . لكننا نفشل في ايجاد افضل وسيلة . يقول لي الباهي بعد عشاء دسم في مطعم « مكسيم » دعانا اليه احد امراء النفط « الثوريين » :

ـــ لماذا لا تقتلينها ؟

ـــ هل انت مجنون ؟ اذا قتلتها فماذا يبقى لي ؟ ... اقصد عن ماذا اتحدث ؟ انها على الاقل تمنحني فرصة الثرثرة !

ونتفق انها ضرورة لا بد منها على الاقل كمادة للكلام ... في قمة صحوي ، اقصد سكري ، تأتيني الضربة الصاعقة واكتشف وسيلة للتخلص منها . أترك باهي وامير النفط « الثوري » ثم اتجه الى غرفتي ... ابحث عنها خلف المدفأة ، ما زالت مكانها ... اضعها في كيس صغير ثم اتجه الى محطة « سان لازار » فأستقل القطار الى « دوفيل » . وعند اقدام البحر استلقي على الرمال تاركة لها حرية الجري والقفز واللعب .

تهاجمني الشمس وانتظاهر بالنوم ... عندما تراني الحشرة ممددة فوق الرمال تغمض عينيها وتفعل مثلي ... بعد ساعات ، أفتح عيني فأجد الحشرة ما تزال غارقة في احلامها ... انها فرصتي ولن اتردد ... أجري باتجاه محطة القطار واعود الى باريس وحيدة .

أمام باب بيتي اتردد قليلا قبل أن اعبر السلم العتيق ... اسمع وقع قدمي على الخشب ... ابحث في حقيبتي عن المفتاح ... افتح ... يلفحني صوت من الداخل كالصاعقة : كانت الحشرة في البيت خلف المدفأة ، لم تغير موقعها قيد انملة ... أرتجف وانا استمع الى صوتها المختلط بصوت « ابو مشهور » والوطن ... أرى وجه

الرفاق مرة اخرى ... جاءوا الي يعذبونني في وحدتي ... رائحة الحرب والاجساد التي شوهتها القنابل ... وجه جنيف وسجون المانيا الغربية . وجه « حران » المحترقة و « عينتاب » النائمة . ثم واخيرا « العملية » التي خضتها في سهول الشمال ... في اعماق الارض المحتلة ، تلك العملية التي كانت الحد الفاصل بيني وبين رفاقي .

(عدت الى حران عن طريق بيروت بعد ان اشترطت سلطات المانيا الغربية عدم دخولي آراضيها . اجتمعت في المساء نفسه مع مجموعة من اعضاء المكتب العسكري وابلغتهم قناعتي بعدم جدوى العمليات الخارجية والانتقال الى الضرب في عمق الارض المحتلة ... حاول عصام ان لا يسمعني ... تجاهل نايف وفرحان ملاحظاتي ... تظاهر « ابو ليلى » بالتعب واجلت المناقشة الى اليوم الثاني .

لقد ظنوا انني ما ازال مرهقة من اثر السجن ، قدروا ان فشلي واصابتي في اخر عملية تحويل طائرة قد اثر علي كثيرا . نصحوني بالنوم وحاولت ان انام . في اليوم التالي عدنا معا للنقاش وكان رايي واضحا : لا يمكن لنا الاستمرار في اساليبنا السابقة ... لا جدوى من خطف الطائرات .

ظل الرفاق متمسكين بقناعاتهم وظللت بينهم غريبة ... لاول مرة احس بالغربة معهم ... اين « ابو مشهور » لاقول له انني اقتنعت اخيرا بوجهة نظره ؟

لقد تحول الى مقاتل في احد معسكرات الشمال بعد ان رفض المشاركة في عمليات الخارج . بل كان مسؤول قطاعنا العسكري .

كان الرفاق قد انتهــوا الى قــرار اخير فيما يتعلق بمســتقبلي بينهم : لا يمكن لي المشاركة من جديد في اية عملية خارجية ، فوجهي غدا معروفا لدى كافة مخابرات اوروبا . كما لا يمكن لي ممارسة اي نشاط علني في وسط المخيمات او المعسكرات خوفا على حياتي بعد ان تحولت او حولتني الصحافة الى رمز . صنعوا مني بطلة وهمية ... صنعوا مني مادة للاستهلاك . ومرة اخرى قرروا عودتي الى العمل الاعلامي : « تستقبلين الصحافيين وتحدثينهم عن تجربتك».

صرخت في وجه نايف بجنون :

ــ اي ان اتحول الى مادة للاستهلاك .

ــ هكذا تتطلب مصلحة الثورة .

ــ ولن اقاتل مرة اخرى ؟

ــ لا يمكن لك ذلك ضمن الظروف الحالية .

ــ اريد الالتحاق بأحد المعسكرات ، اريد ممارسة دوري كمقاتلــة .

ــ لا يمكن ذلك . ان حياتك في خطر ... لقد تحولت الى رمــز .

استقررت في بيت من البيوت السرية التابعة للتنظيم ، منتظرة أن تهدأ الضجة الاعلامية التي اثارها اطلاق سراحي. كنت اتلقى زيارات متفرقة لبعض اعضاء تنظيمنا النسائي يطلعونني خلالها على اخر تطورات الموقف . آنذاك كانت الثورة الفلسطينية تعيش مرحلة صعبة من تاريخها . كان النظام في البلد المضيف قد صمم والى الابد على انهائهــا وبدات الحوادث المتفرقة في المخيمات تأخــذ اشكالا جديدة وتتعمد بالــدم ...

جاءني عصام في البيت الذي احتجزت به وابلغني قرار قيادة التنظيم بالحاقي بدائرة الاعلام في « عينتاب » . لم اجبه ، ظللت صامتة ... لم يكن لدي ما اقوله .

في اليوم التالي سمح لي بمغادرة البيت لزيارة « ام العبد » ، وهناك التقيت « ابو مشهور » . عندما لمحته اسرعت اليه جارية وتعلقت برقبته ... حملني كطفلة واخذ يدور بي . شعرت يومها بأنني له ولن اكون الا كذلك ... تحدثنا عن كل شيء . حكيت له قرار القيادة حول مستقبلي كمناضلة ... حدثني عن مقاتلي القاعدة في الشمال ... حدثني عن الروح العالية التي بلغوها . طلبت مرافقته لقضاء ايام بينهم ، علني اقتنع براي الرفاق في المجلس العسكري . وتحت الحاحي الذي تحول الى رجاء في النهاية؛ صحبني واتجهنا الى الشمال .

هناك التقيت « فرحان » مرة اخرى ، وتحت ضوء مصباح غاز عتيق درسنا معا خطة عملية كان من المفروض القيام بها في اليوم التالي . رسم لي « ابو مشهور » الخطة على الورق وافهمني ان الهدف العسكري من العملية : ضرب نادي ضباط في احد المدن القريبة من الحدود . اما الهدف السياسي فاجبار المنظمات الفدائية الاخرى على الاعتراف بنا كقوة عسكرية وتمثيلنا في المجلس الوطني الذي كان معقوداً في القاهرة . سهرنا الليل بطوله نتدارس امكانية التنفيذ ، ولاحظت ان الاستطلاع لم يكن كافيا ... الامر الذي يسبب تأخير العملية يوما او يومين ، والا فتكون مخاطرة عسكرية غير مأمونة العواقب ، لا سيما وان الشهر في منتصفه ، والقمر يرسل بأشعته فيكشف حتى الصخور الصغيرة المختبئة في حضن الاعشاب . اعترض « فرحان »

على فكرة التأجيل لان ذلك يفوت علينا امكانية فرض وجودنا في المجلس الوطني . وبعد ساعتين ، تلقينا هاتفا من القيادة في « حران » يطلب الينا التنفيذ الفوري لان اجتماعات القاهرة قد بدأت مبكرة والانتخابات ستكون في اليوم التالي.

وزع ابو مشهور المقاتلين على ثلاث مناطق . كان من المفروض ان يعبر الحدود فصيل مكون من خمسة عشر مقاتلا في الساعات الاولى من الليل ، يعززهم خمسة عشر مقاتلا اخر من جهة « ترشيحا » بينما يستقر عشرة مقاتلين في قرية « المنصورة » فيشغلون كتيبة الدبابات التي يمكن لها ان تتحرك باتجاه الهدف في حالة معرفتها بالهجوم . يبقى في القاعدة حيث كنا عشرة مقاتلين فقط لحماية ظهر المجموعة التي تخترق « المنصورة » . وكان من المفروض ان ابقى معهم بصحبة صحفي يساري فرنسي ... تقتضي مهمتنا معا القيام باستطلاع أولي بعد دخولهم العملية بساعة ، ثم الاتصال بهم في القاعدة الشمالية ، أي نقطة العبور ، باتجاه الهدف ، في حالة حصولنا على اية معلومات جديدة ، كما أوكلت الي قضية معالجة الجرحى وتأمين نقلهم الى الخطوط الخلفية خوفا من اية عملية انتقام يمكن ان تحدث .

اخذت القلم من يد « ابو مشهور » واعدت توزيع فصائل المقاتلين . شرحت ان دخول خمسة عشر مقاتلا مرة واحدة الى مدينة هي اشبه بقلعة سلاح مجازفة بحياتهم في حالة اكتشاف امرهم . ونصحت ابو مشهور ان لا يكون على راس العملية كما هو مفروض ، كنت ادرك تماما وبعد تجربتي معه في جنيف ان نقطة ضعفه تكمن في شجاعته التي تصل الى درجة اللاحذر ... تلك الشجاعة التي تتحول

الى خطر اكيد في حالة حرب المدن ... خطر على سلامة المقاتل ومجموعته . أحس « ابو مشهور » كأن في كلامي انتقاصا من امكانياته ، واصر على قيادته للمجموعة ... حاولت عبثا اقناعه بأن ينهي قيادة مجموعة « نادي الضباط » الى فرحان ويبقى هو على رأس المجموعة الاخرى التي ستدخل « المنصورة » اذ ان وجود السكان العرب في المدينة سيساعد على الاختفاء لو فشل في الاقتحام . لم يؤد النقاش بيننا الى نتيجة ، ولا حتى اقتراحي بالتأجيل الكامل للغد حتى تحسم قضية الاستطلاع وتوزع قيادة الفرق . وهكذا اتفقنا على ان ينطلقوا في الثانية عشرة ليلا باتجاه اهدافهم.

وقفت امام البيت الذي كنا نشغله وودعتهم واحدا واحدا . مازحت احد المقاتلين الذي كنا نلقبه : بـ « علي كارلو » نسبة الى السلاح الذي يجيد استعماله ... قلت له انني انتظر عودته من العملية بسلة تفاح اشتهرت المدينة التي سيدخلونها بزراعته ، واذا ما حصل وعاد خاوي اليدين فسأعيده من جديد الى الارض المحتلة ! اقترب مني « ابو مشهور » وقبلني في جبيني دون كلام ... دون وصايا ... ما اتفه اللغات ! لغات الارض كلها كانت عاجزة عن حمل ما يشتعل في داخلي تلك اللحظة ... ذهبوا جميعا ووجدت نفسي وحيدة مع الصحفي الفرنسي الذي حاول ان يقنعني باعطائه مقابلة صحفية لجريدته رفضتها دون تردد . بعد ساعة تقريبا قمت بعملية الاستطلاع الاولى ولاحظت بعض كتائب الدبابات تتحرك في قرية المنصورة باتجاه الهضبة ، وهذا يعني ان رفاقنا في المنطقة الوسطى لن يتمكنوا من ضرب الهدف وعلي تنبيههم حالا ... اخذت

جهاز اللاسلكي وبدأت بارسال نداء الى مجموعة الهدف الرئيسي ... سمعت صوتي يردد :

« ابو مشهور ... ابو مشهور ، الكتائب قادمة من الجنوب ، حاولوا الانسحاب » .

طغت الانفجارات على صوتي ... انفجارات ... قنابل مضيئة تلتمع في كل مكان ... جاءتني « ارم » بثوبها الحزيراني ورأيت وجهها في كل مكان ... استلقيت على بطني في زاوية الغرفة طالبة الى الرفاق عدم فتح النار حتى لا يستدل العدو على مواقعنا . كان الصحفي الفرنسي يتاملني بدهشة واعجاب . يحاول جاهدا أن يكتب شيئا ما على اوراقه المطروحة امامه كجثة . صرخت به ان يتوقف عن الكتابة وينبطح على بطنه ، وكانت قذيفة مضيئة تعبر سطح البيت فتهز اركانه . لم اتلق اي جواب على النداء .. ادركت بمرارة أن الرفاق يعانون من صعوبات تمنعهم من استعمال اللاسلكي ، وقررت التحرك باتجاه الشمال برفقة المقاتلين الذين بقوا معي . خرجت الى ساحة البيت منادية عليهم ... اجتمعوا وانطلقنا مزودين بأسلحة خفيفة وفي رفقتنا الصحفي الفرنسي ، وبينما كان البيت الذي استخدمناه كقاعدة لنا يغرق في العتمة ، انفجرت قنبلة قريبة منا حولت المكان الى نار ... تقدمت عشرة امتار لماذا بقذيفة أخرى تمر قريبا من قدمي .. قفزت محاولة تجنبها ولمحت أحد الرفاق يسقط صريعا والدم يغسل وجهه . طلبت اليهم الانبطاح جميعا وانتظرنا ، عل المعركة تهدأ . فجأة سمعنا صوت المدفعية النظامية ترد على القصف فقررنا الانسحاب والعودة الى القاعدة . لقد بدا لي التقدم وسط الظروف المحيطة مسألة مستحيلة ولا بد أن موقعنا قد اصبح

مكشوفا ، اذ ان القنابل مركزة عليه بصورة مرعبة . حملنا الرفيق الذي كان يلفظ انفاسه وتراجعنا الى الخطوط الخلفية منقذين ما استطعنا من الاسلحة ... استمرت قذائف النار على رؤوسنا حتى الفجر ومع الخيوط الاولى للنهار هدأ كل شيء . في الخنادق عدت من جديد للاتصال بمجموعة الشمال وسمعت صوت فرحان يجيبني على الطرف الاخر :

ــ حاولي الاحتفاظ بالرفاق ، لقد سقطنا في كمين .

قفز الدم الى رأسي .. كنت عاجزة عن ان افعل شيئا ... حاولت الاستفهام عن طبيعة الكمين الذي سقطوا فيه ، لكن صوت فرحان اختفى ، وظل صوتي يردد بعصبية:

ــ ألو ... فرحان ... اخبرني هل يمكنكم التراجع؟

سقطت اشعة الصباح علينا في الخنادق وسمعت اصواتا قادمة ... وضعت جهاز اللاسلكي جانبا وحملت بندقيتي وخرجت . كان فصيل المنصورة قد عاد ومعه اثنان من الجرحى ... مدفعية العدو صمتت ايضا أمام مدفعية الجيش النظامي ... أسرعت اساعد الرفاق الجرحى على دخول البيت ثم رحت اضمد جراحهم بمساعدة الصحفي الفرنسي ... كانت الوجوه شمعية وصامتة كأن شيئا كالموت يلف ملامحها ... كنا ندرك أن فصيل « ابو مشهور » لن يعود ، وأحسست الالم يمزقني . لن التقي وجهه بعد اليوم ، لن التقي وجه علي كارلو ولا فرحان ... لم استطع الاستسلام للتفكير ، فقد كانت امامي مهمة محددة : هي نقل مركز القاعدة بأسرع ما يمكن الى مكان آخر ، لان العدو قد كشف مواقعنا ، ولا بد أن سقوط خمسة عشر مقاتلا من رفاقنا في ايديهم جعل الامور في غاية الصعوبة . فمن

يدري تحت أي ظرف سقطوا ؟ وهل هم قادرون على ان لا يتكلموا تحت وطأة التعذيب ؟.

اعطيت الاوامر للرفاق بالعمل على نقل الاسلحة الى السيارات ، وبدأنا معا بتعبئة الذخائر في أدراجها ، ثم غادرنا المعسكر باتجاه الداخل . في طريق عودتنا الى الجنوب الشرقي ألتقينا دورية عسكرية نظامية ، استوقفتنا وطلبت الينا الاتجاه الى معسكر قريب . حاولت أن أناقش مسؤول الدورية بالسبب الذي يدفع به الى الاحتفاظ بنا الا أنه لم يجب بشيء . لقد فهمت بشكل غير مباشر : أن دخولنا عملية امس دون الاتفاق معهم ... بل دون الحصول على اذن مسبق من وزارة الدفاع جعل الجو بيننا وبينهم غير طبيعي ، فقد كانت الاتفاقيات تقتضي أن نتقدم بطلب السماح لنا باجراء اية عملية عبر اراضيهم الى وزارة الدفاع قبل خمسة عشر يوما من تاريخ التنفيذ ... هذه المسألة التي اوقعتنا في السابق في تناقضات ومشاكل لا حصر لها ، فالاهداف التي كنا نحددها تتغير بسرعة وأحيانا قبل وصول الموافقة ، مما أضطر الرفاق قادة القطاع الشمالي الى خوض عمليتين او ثلاث دون اذن مسبق . الا ان عملية الليلة الماضية كانت من العنف بحيث أضطرتهم للتدخل عسكريا رغم قرار وقف اطلاق النار بعد الخامس من حزيران .

اتجهنا معهم الى احد معسكراتهم ، وهناك التقانا ضابط برتبة « مقدم » طلب الينا ترك السيارة والدخول الى الخيام ، ثم دعا قائد العملية ان يذهب الى مقابلته في خيمته . كنت الوحيدة الباقية خارج الاسر والموت من قيادة

العملية . لحقت به وعندما دخلت عليه الخيمة هب واقفا وحدق في وجهي بذهول :

— أهذه انت ؟!

كان قد تعرف الى صورتي في الصحف عقب اخر عملية نفذتها في المانيا . يومذاك تحدثوا عني طـويلا . نشروا صوري على الصفحات الاولـى ... تكلموا عن الفهـدة الشجاعة ... النجمـة ... الاسطـورة ... الحيـوان الاستوائي ... عن الارهابية المدربة جيدا . لقد صدق ابو مشهور عندما قال لي في جنيف : ان البطولات الفردية مسالة مهنية للرفاق الذين يمـوتون بصمت . أحسسـت تلعثمه فتحدثت انا .

— نريد ان نشكركم على مشاركتكم في عملية البارحة .

ظل صامتا ... استطردت :

— اننا اسفون ، لم يكن بامكاننا انتظار موافقة وزارة الدفاع ، لقد كانت استطلاعاتنا تبين امكانية تغير الهدف .

ظل صامتا .. تابعت :

— يرجى السماح لنا بتغيير مواقـع المعسكر ، ان سقوط رفاقنا بالاسر يجعلنا في خطر حقيقي لو بقينـا في مواقعنا السابقة .

هز رأسه بصمت واطرق الى الارض ... بعد دقائق توجه بالحديث الي :

— تعرفين جيدا انه من الخطر خوض اية عملية دون انتظار موافقتنا المبنية على دراسة ظروف المنطقة ... لا تتصوروا أبدا ان وزارة الدفاع تتردد في أعطائكم الموافقة لاسبـاب اخـرى .

يصمت الناطق الرسمي باسم السلطات والانظمة . .
اتذكر أيام حزيران و « ارم » علـــى ابواب السقوط . . .
يومها قبلت ايديهم جميعا . . . رجوتهم فردا فردا أن يمنحوني
سكينا ادافع بها عن نفسي فرفضوا . لم اكن املك ما أقوله
لهم في تلك اللحظـــة . . . كان دم رفاقي يســقي تـراب
الهضبة التي تركتها . . . احببت فقـــط أن اتأكد اذا كنا
رهائن ام لا . . . حاولت أن اطرح سؤالي بشكل مباشر . . .
ان ألح على قضية السماح لنا بتغيير مواقعنا . . . ان يسمح
لبعض منا بالسفر الى حران لابلاغ قيادتنا بالنتائج . وبعد
ساعة نقاش استقر الرأي على الاتصال بقيادته وانتظـــار
ردهـــا .

مرت الساعات بطيئة وانا انتظر . . . رفاقي ينتظرون
والشمس تتسلق السماء فترسل بأشعتها الى اجسادنا .
انتحيت جانبا وحركت ابرة الراديو علـــى اذاعة العدو في
محاولة لالتقاط نشرة اخبار الظهيرة ، وكما توقعت تماما في
الليلة الماضية فان كمين « ابو مشهور » اكتشف امره قبل
الوصول الى الهدف ، مما اضطره لخوض معركة كانـــت
نتيجتها ــ حسب اذاعة العدو ــ سقوط ثلاثة قتلى والبقية
في الاسر .

واشار المذيع الى انه تم التأكد من وجود معسكـــرات
« للمخربين » قريبا من « المنصورة » . وهذا يعنـــي ان
رفاقنا اعترفوا . . . لكننا لا نعرف تحت اي ظرف تم ذلك .
ولم تذكر اذاعة العدو اسماء القتلى ولا هوياتهم . . . الامر
الذي جعلني اشك بأن « فرحان وابو مشهور » ما زالا على
قيد الحياة ، فلو حصل وكانا في عدد القتلى لصرحت الاذاعة
بذلك تظاهرا منها بالقضاء على قادة المنطقـــة . . . ولكن

افتراضي هذا تطاير مع الريح بعد لحظات قليلة ، فربما لم يعترف الرفاق الاحياء بأسماء قادتهم الذين سقطوا ، وظل الامر مبهما .

في الظهيرة جاءني عسكري في خيمتي يستدعيني لمقابلة الضابط « قائد القطاع » . ذهبت اليه ، كان يحتسي قهوته ببطء ... وقف يحييني ومد يده لمصافحتي بأدب ثم ابلغني ان قيادته وافقت على نقل معسكراتنا تحت شرط واحـد هو : أن أتعهد أنا باسم قيادة التنظيم بعدم القيام بأيـة عملية دون اذن مسبق .

ــ تعرفين ان هذا يورطنا في حرب لسنا مستعدين لهـا .

قال الضباط ذلك وهو يمد يده لي ليسلمني الموافقة الخطية لقيادته . شكرته وهممت بالانصراف عندما استوقفني قائـلا :

ــ لو كنت مكان قيادتكم لحاولت الحفاظ على حياتك بشكل افضل . لقد تحولت الى رمز ومن الخطأ تعريضك للموت بسهولة .

مرة أخرى يعود « أبو مشهور » ليؤكد لي بكل بساطة صدق احساسه . ابتسمت مجاملة الضباط وخرجت .

دخلت على رفاقي في الخيمة الاخرى وقد بدا التعـب على جباههم وعيونهم واجسادهم . أبلغتهم بموافقة « قيادة الجيش النظامي » على تغيير مواقعنا العسكرية ... فرحنا جميعا ثم غادرنا المكان مودعين الجنود الذين اهتموا بنا وقدموا لنا الطعام والشراب ثم ناقشونا مطولا في قضية : « عروبة الثورة » ... اتجهنا الى حران ، فقد كان علي

ان اقدم تقريرا مفصلا عما حصل في القطاع الشمالي ، اذ ان القضية في منتهى الخطورة . فخسارة اثنين من افضل مقاتلينا ... بل من قيادة تنظيمنا العسكري وضعتنا في موقع حرج لا سيما في تلك المرحلة من عمر الثورة .

كنت قلعة حزن صامتة في طريقي الى « حران » ، فقد فقدت صديقي قبل يوم فقط دون ان يكون لي الحق بالحزن ... الحزن ترف لا يقدر عليه اناس مثلنا . لم استطع تخيل وجه « ابو مشهور » ساعة سقط في ايديهم ... لم استطع فهم قصده عندما قال لي قبل الرحيل : المعركة اكثر تعقيدا مما نظن . هل كان يعرف انه لن يعود ؟ وهل خاطر حقا بحياته وحياة رفاقه في عملية لم تكن نتائجها مضمونة ؟ اذا كانت المسألة هكذا فعلينا ان نفهم المسائل بشكل اخر ... علينا ادانته .

كل هذه الاسئلة ، يا فرانك ، سكنت راسي ولم اجد لها جوابا ... الليل في اخره ... اعشق « ابو مشهور » وانتظـــر عودته .

في مساء اليوم اجتمعت الى المجلس العسكري لمناقشة ما حصل . كنت متهمة في نظر اكثر الاعضاء حتي أن نايف طلب محاكمتي بعد الاستماع الى تقريري الخاص بالعملية .

لقد ارتكبت خطيئتين :

الاولى : سفري الى الشمال دون اذن القيادة مـــع مخالفة قرارها السابق بعدم العودة الى القواعد .

الثانية : عدم اعلامهم بنتائج العملية مباشرة وتاخري حتى اليوم التالي .

كان عصام اكثرهم حدة اثناء الاجتماع ، كانت كلماته تتفجر من فمه :

ـ ليست المقاومة شعرا يا نادية ، المقاومة احترام الاوامر العليا ، لا يمكن لنا ان نكون مزاجيين في قضايا كهذه .

ورددت على عصام بحدة ... ذكرته بما قبل الخامس من حزيران ... ذكرته بالايام الصعبة ، وذكرتهم جميعا بالاخطاء التي نرتكبها ويمكن لها أن تؤدي بنا الى الهلاك .

ـ لست قديسة انا ، اعرف انني اخطأت ، لكنني كنت اخشى الاستمرار دون ان تتاح لي ممارسة حقيقية للنضال .

عبرنا الى المرحلة الثانية وناقشت معهم خطة العملية وظروفها ونتائج الاستطلاعات السابقة التي قام بها الرفاق قبل مرحلة التنفيذ . شرحت لهم انني لم أكن مقتنعة تماما بالخطة ، وان الاستطلاعات التي اجريت لم تكن كافية لخوض عملية كتلك التي ألقينا فيها بكل ثقلنا العسكري .

لم تلق آرائي ترحيبا بينهم ... انقبض وجه صالح وسمعت نايف يقول :

ـ كان لا بد من اجراء العملية قبل انعقاد « المجلس الوطني » حتى نستطيع فرض أنفسنا على فصائل المقاومة.

واسقط في يدي ، اختلطت لدقائق الوجوه والاصوات ... بدا لي وجه نايف قناعا ثمينا يمكن طبع آلاف النسخ منه وتوزيعها على الحكام لعرب ليلبسوها ايام الاحتفالات الرسمية والاعياد ... ما الفرق بيننا وبين الحكام ؟ السمك

الصغير لصالح السمك الكبير . وقذف خمسة عشر مقاتلا مرة واحدة الى الموت من أجل كسب اصوات في « المجلس الوطني ». جريمـــة ، لكنها جريمة مبـــررة باسم التكتيك والاستراتيجية ، والنتيجة واحدة .

لفظوا قرارهم في حقي : نقلي الى « عينتاب » للعمل في احد مكاتب المنظمة كمسؤولة اعلام ، والسجن لمدة عشرة ايام لمخالفتي قرار القيادة بذهابي الـــى القواعد دون اذن مســبق .

ذهبت الى السجــن في اليوم التالـــي لتمضية فترة العقوبة . كان عبارة عن غرفة صغيرة مليئة بالكتب ملحقة بأحد معسكراتنا في « وادي موسى » . استقبلني احــد المقاتلين ضاحكا وادخلني الى حجرة صغيرة ثم اغلق الباب خلفي قائلا :

ــ رفيقة نادية ! عليك بالصبر وقراءة اصل الاسرة والملكية الخاصة .

لم اكن ناقمة لكنني كنت حزينة لنقلي الى ساحـــة اخرى بعيدة عن المعسكرات والمقاتلين . وفهمت يومذاك بأن الرفاق قد قرروا زرعي مـــن جديد في شـــوارع المدن العربية الميتة بعد الخامس من حزيران ... تحويلي الى مادة أستهلاك رخيصة للصحافيين والصحف ... عودتي للقاء من جديد بمثقفي مقاهي « عينتاب » الذين نسيتهم في لحظات الفعل .

في السجـــن اكتشفت اننـــي قد طعنـــت شخصيا في الصميم ، وان موت أو اسر « ابو مشهور » في تلك المرحلة خسارة كبيرة لنا . لقـــد كان من افضل وانقـــى كوادرنا العســـكرية .

في السجن جاءني وجهه مرتسما على صفحات الكتب ... على وجه حارسي المقاتل ... على النافذة التي تنقل لي شعاع النهار . وادركت انني احبه . تذكرت ايام جنيف ونحن جسدان في سرير واحد والثلوج تغطي بحيرة « ليما » في الخارج ... تذكرت تردده الطويل حول جدوى عملياتنا الخارجية ... تذكرت وجهه في الطائرة وهو يهمس لي : « أن عدنا سالمين ساظل احبك » .

تذكرت وداعه لي ليلة العملية وقبلته على جبيني ... يا الهي كم هو صعب ان نعشق مقاتلا !

خلال فترة السجن قرأت كثيرا ونمت قليلا ... قرأت مذكرات « تشي » عن الحرب الكوبية : ووقفت مطولا أمام المقاطع التي يتحدث فيها عن طبيعة العلاقة التي كانت تجمعهم بالسكان في منطقة « السايراما يسترا » ، تلك العلاقة الايجابية التي ساعدتهم على الاستمرار في معاركهم حتى النهاية . تذكرت أن علاقتنا بالجماهير الفلسطينية لم تكن حتى تلك اللحظات علاقة قوية ... كنا نحرص على التوجه لهم بالاسلوب الذي نتوجه به الى الصحف ... مبالغات حقيقة حول امكانياتنا وحجمنا الحقيقي ... واكتشفت أن الاعلام سيتيح لي فرصة تغيير هذا النوع من التوجه) .

باريس ١٩٧٧

جدران غرفتي ... حائطي ... خارطة الوطن ... صورة امي وابي .. انت ... صورة « أبو مشهور » في الذاكرة ... رفاقي جميعا . الجدار يهتز وصداع حاد يهاجمني في هذه الساعة .

الحشرة ترسل بأزيزها وانا سجينة أوراقي ورغبتي بالهرب الى مكان ما على وجه الارض ، حيث لا حشرات ولا وطن ولا ذكريات .

تمزقني الاصوات والذكريات ... تعذبنـــي الريح في الخارج ... اين انت يا فرانك ؟ تذكر بعض جنوني ... تذكر بعض هربي من كل هذه الاشياء ، كنت ألجأ اليــك واطلب قليلا من الحنان .

مرة ، أتيتك في اواخر الليل اجر اشلائي هاربة من الحشرة ... من ذاتي . صعدت الطوابق السبعة لبيتك... توقفت امام الباب الخشبي لاهثة متجاهلة أصوات الكلاب والفئران في الشقق المدفأة جيدا ... قرعــت الباب بشدة ففتحت لي . عندما لمحت وجهي في ضوء الممر مددت يــدك تساعدني على تجاوز العتبة ونظرة استغراب تطل من عينيك:

ـــ ما الذي جاء بك ؟ فرحة انت ام حزينة ؟

عبرت الممر واتجهت الى المقعد المقابــل لمكتبك ... دائما كان يحلو لي ان القي بنفسي عليه .. مرت بنا اللحظات وانت تحدق بي وجثة ذكرياتك تنتشر أوراقا على الطاولة . سألتــك :

ـــ اما زلت تكتــب ؟

ـــ اتم روايتي ، علي ان اسلمها لدار النشر قبل نهاية هذا الشهــر .

ـــ هل تتحدث عن الثورات والنضال والمقاتلين ؟

ـــ اتحدث عنك ايضا .

دهشـــت :

ـــ عني ! لماذا ؟

ـ أوه ، لماذا ؟ لماذا ؟ لست ادرك ، حاولت ان اجمع بينك وبينهم .

ـ اما زلت تحلم برفاقك القدماء ؟ المسافات بينكم شاسعة الان ، اليس كذلك ؟

ـ أحلم بهم ، اكتب عنهم . لا خيار لي ، انا معهم برأسي ، وجسدي هنا .

ـ ولماذا لا تعود اليهم ؟

ـ هذا مستحيل ، لا مكان لي هناك ... انا هنا في بلدي حيث لا يسألني احد من اين اتيت ، بل يجهدون انفسهم لمعرفة اسم عائلتي والمدينة التي ربتني .

ـ لقد هجرت دور الخبير والمستشار يا عزيزي فرانك !

يمر الصمت بيننا ، نقاتل اللحظة لننسى ، يا أساطير النسيان ... يا حاجتنا للاساطير ! آه يا فرانك ... كم شعرت في تلك اللحظة بقذارتنا ... احسست أن اجسادنا لا تستحق حمل رؤوسنا ... لم اسألك عن موضوع روايتك ، انا اعرف تماما ماذا يدور في راسك .. نهرب معا الى الحب ... نهرب معا وكالعادة الى جسدينا : جثتان نتنتان ، وليس اقل ولا اكثر من ذلك .

تمطر في الخارج ... تمطر وانا قلعة نسيان ... ارتجف على الارصفة رافضة عودتي الى الجدران الاربعة.

الحشرة في البيت ، الحشرة ترافقني اينما اتجهت . عذاب حقيقي يستيقظ في جسدي وانا اسمعها تغني ... اهرب ... اهرب ، الجأ الى صديقي « السفير الغاضب »

الاتي من بلاد النوم والحر ، واحاول ان احدثه عنها ... عنك ... عن الله . لكنه هو الاخر يهرب مني الى اللـه وزوجتيه الاثنتين وقبيلة اطفاله ، ونمارس معا لعبة الهرب الى اشياء اخرى وعالم اخر .

مضى الليل ، باريس امام صباحات البرد والحـب تتنفس ببطء وكأنها اعلنت سأمها من كل شيء . كانـت سوداء ، كوجهي . في المساء تدخل قصتنا عامهـا الاول وتكون الحشرة قد استيقظت منذ شهور . كم اتمنى ان اعود الى بيتي فأجدها قد هجرتني ! او اصيبت بالخرس ... بفقدان الذاكرة ، بالموت ... كم اتمنى لو انها ماتت !. لماذا تركتني وحيدة في باريس ورحلت ؟

فرانك ، انني خائفة ...

قبلك ، كنت قد ادمنـت غربتي ونسيـت الرفاق او تناسيتهم . قبلك رفضت لقاءهم في باريس ... هربت من سماع اخبارهم ... حاولت ان اتصالح مع الزمن والاشياء واقبل حياة عادية لامراة ... قبلك ... لنقف هنا ... يكفي ، لنبدأ من جديد .

(كنت زوجة ، هذا ما اتذكـره الان . تم ذلك دون مقدمات ، وبعد رحيلي عن « حران » الى « عينتاب » . قال رفاقي هنـاك :

« عليك باجراء عملية جراحية تغير قليلا من ملامحكِ، وجهك غدا معروفا و « عينتاب » مدينة مفتوحة للبحـر والسواح والحشيش ، امكانية حراستك الدائمـة مسألة صعبة » .

لقد غدوت عبئا على رفاقي ! وذهبت برفقة احد رفاقي الاطباء الى عيادته ... عيادة زوجي السابق . وكان اشهر طبيب تجميل . حدثناه عن رغبتي باجراء العملية شارحين له صعوبات ان ابقى بوجهي الحقيقي (لم يكن بامكاني حمل وجهي الحقيقي) .

أذكره الان بشيء من الحنان .

في الاربعين من عمره ينتمي الى عائلة وطنية وعريقة من اسر الجنوب ، عاد الى بلاده من اوروبا بعد ان امضى عشر سنوات لاتمام دراسته ... حاول ان يزرع نفسه في تربة الوطن من جديد ، فوجد انه دون جذور ... دخلت عيادته في اليوم التالي ، وكنت ما ازال اعاني من اثر انهيار عصبي اصبت به في الايام الاخيرة من فترة السجن ، الامر الذي جعلني افقد الكثير من وزني وأبدو عصبية ممزقة . عندما استرحت على مقعد مقابل لمكتبه ، حاولت ان اشرح له اهمية ان يبقى الامر سرا بيننا ، ترك المكتب وانتقل الى جانبي ، وضع يده على فمي محاولا اسكاتي :

— لقد سمعت عنك كثيرا ولم اكن اعرف انك ما تزال لاول مقاتلة ، ستتم الامور بسرعة .

ابتسمت ارد على مجاملته :

— لقد سمعت عنك كثيرا ولم اكن عرف انك ما تزال شابا .

ضحك ، ثم تركني وغاب دقائق ليعود بمجموعة صور لانوف كثيرة ... انوف مدببة وحادة . انوف صغيرة ومستقرة بهدوء في وسط وجوه يطبعها الفرح ... انوف مستطيلة... قال لي :

— اختاري انفك ...

اضحكتني الفكـــرة .

ـ هل ساغير انفي ؟

ـ ماذا تظنين ؟ اننا لا نستطيع ان نغير شيئا آخـــر في وجهـك .

ـ وسأظل قادرة على شم رائحة الياسمين والبارود والانظمة العربية ؟

أضحكته عبارتي الاخيرة :

ـ لن أضمن رائحة الياسمين ، لكنني اؤكد لك الثانية والثالثة ... الثالثة خصوصا !

امسك بيدي فلاحظ انني كنت ارتعش قليلا ، اخافتني فكرة تغيير أنفي ، قال لي :

ـ لا تخافي ، لقد عهدناك شجاعة ، سيتم الامـــر بسرعة .

صحبني الى طاولة العمليات ، ورايت وليمة المقصات والمباضع والضمادات ... مددني تحـت الاضواء الكثيرة المسلطة على وجهي وانتظرنا وصول احد رفاقي الاطبـــاء ليقوم بمهمة تخديري .

رغبة ما بالانتماء الى شيء غير الموت والرفاق السريين هاجمتني في اللحظات التي سبقت اجراء العملية ... كان وجهه يضيء الغرفة ... اشعرني هـــدوؤه بحاجتي الى الانتساب ... الى الانتماء المؤقت لعاصفة ما ... لرحلة في قطار ... لرائحة عطر بري قادم من غابات بدائية . جرى ألامر بسرعة كبيرة ... لست أدري كيف ؟ لكن الرفيق الطبيب قال لي فيما بعد انه شعر بأنني كنت سعيدة جدا للتخلص من انفي الذي أزكمته الحرب ورائحة الجثث والانظمة العربيـــة .

استفقت على الم حاد في وجهـــي ... احسست ان اعصابي كلها مركزة به ، حاولت ان لا اصرخ ولا اشتكي . جاء الي في المساء واعطاني حقنة مخدرة ثم طلب الي النوم وقبل أن يغادر الحجرة عاد من جديد وجلس على طرف السرير :

ــ لقد كنت هادئة جدا اثناء العملية ، يا الهي اية اعصاب تحملين !

سمعت ضحكتي تصطدم بالجدران البيضاء وترتد الي . اية اعصاب تلك التي احملها ؟ ما مر قد مر ، وما مضى قد مضى ... حزيران جعل مني قلعة صمود ، واكتشفت ان الحـــرب لم تكن سكينا فحســـب بل كانت القـــدرة على الاستمرار .

مضت ايامي في المستشفى ووجهه لا يفارقني . كان يأتيني في الصباح ليغير ضماداتي ، ثم يعودني المساء فيحكي لي عن تعب يومه .

ذات يوم ، وكنت قد استعدت بعض حيوتي ، اخـــذ بيدي وجلس على حافة السرير .

ــ تعرفين ... لقد مرت العملية بسهولة لم اكن اتوقعها ... كنت تتأوهين قليلا .

ــ هل استعصيت على المخدر ؟

ــ الى حد ما . حديثني عن حياتك ، لقد عرفت من الصحف أنك كنت شاعرة ، أما زلت تكتبين الشعر ؟

ذكرني سؤاله بعالم نسيته ... الشعر ؟ صحيح لقد كنت شاعرة قبل أن التحق بصفوفهم .

اجبتـــه :

ـ لقـــد هجرت الشعر . انني احاول ان اعيشـــه بينهم .

لم تبد القناعة على وجهه ... استمر بمسح ظاهر يدي ... استسلمت لشعور غريب . شعور مسافر مخدر على وجه موجة .

ـ يقولون أنك من اصل غير عربي ، هل هذا صحيح ؟

هززت رأسي بالايجاب ، ان انتساب الدم يلاحقني ابـــدا .

ـ انا من اصل كردي ، بل والدي

ـ وكيف قررت اللحاق بهم ؟ اقصد ...

ردني سؤاله الى طفولتي ، الى يوم اكتشافي الاول لكوني انتمي لأمة غير تلك التي اقاتل من اجلها ... تذكرت وجه جدتي ولغتها الغريبة ... كلمات ابي وهو يمازحني بعد أن انتميت الى اكثر الاحزاب القومية العربية تعصبا ... اكتشافي شعر سليمان العيسى ... هززت رأسي قليـــلا وانا أجيبه :

ـ ما الفرق أن اكون من اصل عربي او غير عربي ؟ لقد عشت بينكم ولا أعرف لي انتماء آخـــر ، اللغة ... التاريخ ... والوجوه التي رافقت طفولتي .

ظل الحديث مستمرا .

ـ يقولون انك اميرة كردية . أهذا صحيح ؟

ابتسمت : الاساطير مرة اخرى !

ـ اميرة ؟ لا ادري ... والدي كان حريصـــا على شجرة عائلته .. عليك ان تسأله عن ذلك ... المســـألة لا تعنيني اكثر من عدد سكان جاكارتا .

أيامي في المستشفى جعلتني احس بقربي من ذلك الوجه الهادىء المطمئن ... رفقته لي في الساعات التي تبقى له من عيادته زرعت في داخلي عاطفة اقرب الى الحرص على الحياة نفسها ... كنت راغبة بالحياة بعد ان عرفت الموت وجاء الي يحمل الحياة على كفيه . بعد خروجي من المستشفى بأيام تزوجت من « خالد » ، وانتقلت لأعيش معه في احدى المقصورات القريبة من مدخل عينتاب .

يومذاك ، تحدث الرفاق طويلا عن زواجي واعتبروه هربا من مواجهة الصعوبات التي كانت تطالعنا في ساحة « عينتاب » . حاولت ان لا يكون الزواج عائقا بيني وبين المهام الموكلة الي ... كنت اقضي نهاري بطوله في احد المخيمات ، اقرأ الصحف ... اتلقى الشيفرات والرسائل... اعيد صياغة التقارير السياسية التي ارسل بها الى القيادة في « حران » ، أستقبل الصحافيين والزوار الاجانب ... ارافقهم الى المعسكرات ... وفي المساء اعود الى بيتي فأمارس دوري بهدوء . امراة ... امراة اطهو الطعام واهتم بالاشياء الصغيرة ، ومعا في المساء نقرا بعض الكتب ونستمع الى « فاغنر » . كنت عاشقة « فاغنر » . لم اكن اشعر بأي تناقض او تمزق ... كنت امارس دوري بهدوء مطلق واطمئنان لا ادري من اين جاءني وسط زوبعة القلق التي تخيم على ساحات القتال .

لاول مرة ، وبعد غياب سنتين عن اهلي ، جاءت امي الى « عينتاب » واستقرت معي في البيت الواسع ، بعد ايام لحق بها ابي وكنت في غاية السعادة لرؤيتهما . واحسست بعد سنة ونصف من التشرد بلذة الحياة العائلية .

— أكنت تحبينه ؟

ــ كنت معه فقط بانتظار « ابو مشهور » .

تحدق في وجهي باستغراب وتسألني :

ــ ومن هو « ابو مشهور » ؟

اتذكر انه لا يحق لي الحديث عنه :

ــ اوه صديق قديم .

ــ ولماذا تزوجته اذا ؟

ــ كف عن أسئلتك ، وحاول ان تدع لي قليــلا من السـلام .

لقد حاول كثيرا ان يقودني الى الحياة « الطبيعية » ــ كما كان يقول ــ والحياة الطبيعية بالنسبة له : البيت وحفلات المساء ، الدعوات والرحلات ... لم يكن يعي ان كل هذه الاشياء لم تعد تعني لي شيئا ، ومع ذلك فقد مضت الاشهر الاولى بسلام .

ذات يوم كنت انتقل من مكتبي في المخيم عائدة الى البيت ، فشعرت بدوار خفيف في راسي . وتذكرت ان العادة الشهرية قد تأخرت خمسة أيام . كان الى جانبي وخفت ان اخبره بذلك لانني كنت اعرف الى اي مدى يرغب بأن يكون له طفل ، ومن جهتي لم اكن قد اتخذت قراري بعد .

في المساء اخبرت امي بذلك فبدا عليها فرح حقيقي ، وقالت لي :

ــ احتفظي بالطفل ، لا تنسي انــك الآن في الثامنة والعشرين وزوجك في الاربعين .

ظللت صامتة ، كان علي ان افكر قليلا بالامر ، ماذا يعني ان أكون اما ؟ هل انا قادرة ضمن الشـروط التي اعيشها ان امنحه طفلا ؟

عندما أخبرته بعد طول تردد بدا بدائيا ومحبا ، وبعد لحظات صمت طلب الي مباشرة ان اخفف من عملي في مكتب اعلام المنظمة واحاول التفرغ قليلا لنفسي .

وقعت عباراته على راسي كصاعقة ... ذكرتني بما نسيت من حياتي واشيائي وواقعي . علي ان اتحول الى امرأة تنتظر طفلا ، وخلال الانتظار تعيش امرأة ... وطرح السؤال علي : وعملي في المنظمة ، دوري كمقاتلة ، مشاركتي في حياتهم ... كل هذه الاشياء ليست بكافية لجعلي امرأة ؟

بعد ايام جاءني « خالد » في مكتبي بالمخيم ، وكانت المرة الاولى التي يزورني فيها هناك . وسط الصحف وآلات السحب ... وسط الحبر وضجيج جهاز الاستماع طلب الي ان اخفف من نشاطي واتوقف عن متابعة التدريب العسكري الذي حرصت على الاستمرار فيه لمدة ساعتين كل يوم ... كنت ارفض الاستسلام والصدأ ، فالمقاتل — وانت تعرف ذلك — كالسلاح اذا لم تعتن به يتآكل بسرعة . احساس بالخيبة والحيرة استبد بي ورأيت وجهه غريبا . يا الهي ! لماذا هاجمتني الرغبة بالانتماء والدخول في رهان الحياة العادية ؟

لم اعد ملكا لنفسي .

دوت هذه العبارة في راسي وحدقت في وجهه جيدا . لأول مرة أشعر بغربتي عنه ... مسافران في قطار ربما ينتظران اول محطة ليفترقا .

قبله ... اي قبل الزواج والبيت والحمل ، كنت أتصور ان العودة في المساء الى صدر رجل ستعيد لي الكثير من التوازن الذي يساعدني على الاستمرار واضحة وصريحة .

فحياتي في السابق كانت مغامرة جميلة متعبة احيانا . لم يخطر لي أبدا وأنا اطوف موانىء اوروبا باحثة عن الثورة ان اليوم سيأتي واختار بين دوري الطبيعي وحياتي الحقيقية. استسلمت قليلا للراحة ... حاولت ان اخفف ساعات تدريبي واقتصرت على ساعة يوميا اختصرتها في الشهر الثاني الى نصف ساعة الى ان كان أيلول .

انفجرت المعركة فجأة في « حران » ... في سهول الشمال ... في كل مكان من الساحة التي تركتها ، وبدا الرفاق يصلون تباعا الى « عينتاب » واشتعلت المدن العربية .

ازداد حجم العمل في قسم الاعلام وبدات الاحداث تتلاحق بسرعة غريبة ، وتطلب ذلك ان انقطع للعمل في مكتبي بعيدة عن البيت ... كنت انام هناك واكتب ... الاحق الاخبار ووكالات الانباء العالمية ... ادرس كافة التقارير الواردة الينا من القيادة والتي تؤكد على قوة موقعنا وصلابة مقاتلينا . وعلى مرور الايام ، تراكمت جثث المقاتلين في شوارع « حران » تحت صمت العالم كله . ونسيت آنذاك الجنين الذي في بطني ... نسيت انني زوجة وان لي بيتا ورجلا واهلا . نسيت انني انتمي الى الحياة اليومية العادية في شوارع « عينتاب » وسكنت مكتبي في المخيم . ضاعفت ساعات التدريب وخوف كبير يسيطر علي من انتقال الشرارة من « حران » الى « عينتاب » ... عدوى القتل والتشريد ... عدوى الصمت على كل ما حصل .

كان « خالد » يتصل بي كل صباح ويسألني عما اذا كنت ارغب في العشاء معه في البيت . اي بيت وسط الدم ؟

اي حب واي زوج ؟.. سكين حزيران تحولت الى قنابل ورصاص في ايلول ولم يعد الصمت ممكنا ... لم تعد الحياة ممكنة ... وبيانات الدول والمؤسسات الرسمية تصرخ بتفاهتها في وجه الاطفال الذين احترقوا .

تتالت الاحداث : حوصرت « حران » ، حوصرت معسكرات الشمال ... حوصر الرفاق في المخابىء وجاءتني رائحة الجثث مع الريح وكلمات المسافرين . العائدون الينا احياء من بعض المعارك حملوا جراحهم وخيبتهم واتجهوا الى المخابىء ، وكنت انتظر ابدآ ان تحصل معجزة تنقذ ما تبقى منهم هناك . الدماء غسلت كل شيء ... الدماء غسلت انتظاري وأملي وادركت قساوة ان نعيش في هذا العصر .

في اليوم الرابع عشر لبدء المعارك تلقيت برقية من القيادة تطلب فيها الي اعداد مخابىء كافية في « عينتاب » حتى يستطيع أعضاء المكتب السياسي الانتقال اليها . كانت المهمة في غاية الصعوبة ، فالبلاد تعيش هي الاخرى تناقضات لا حد لها . وقد نوقشت مسألة تواجدنا على ساحتها قبل ايام في المجلس النيابي . في المساء اجريت اتصالا هاتفيا بوالد زوجي الذي كان في الجنوب وطلبت اليه ان يساعدني على ايجاد مخابىء للرفاق ... تردد كثيرا قبل ان يعرض علي انتقالهم الى احدى قرى الجنوب قريبا من الحدود حيث يمكن حمايتهم في حالة نشوب اية انفجارات في « عينتاب » وقبلت الفكرة ثم آتجهت بسيارتي آلى الحدود التي تفصلنا عن ساحة المعركة بانتظار مقدمهم . بعد ساعة وصل « صالح » و « محمد » ولم يكن عصام برفقتهما... ركبنا السيارة باتجاه « عينتاب » وكانت يداي ترتجفان على المقود وانا اعبر سهول البقاع . نظرت الى وجوههم المتعبة ... ولحاهم الطويلة

... شممت رائحة عرقهم المختلطة بالارض ورائحة البارود. وتذكرت بقهر — بل بحقد — رغبتي بأن اكون أما . لماذا تلك الرغبة المجنونة ، لماذا ؟ ان اكون اما في اللحظة التي يقتلون فيها وتتشرد اطفالهم ؟.. ان القي للعالم العربي بمشرد جديد ... لماذا لم اخجل منذلك في الماضي ؟ فجأة هاجمتني الرغبة بالتخلي عن الجنين .. شعرت بأن العار يسكنني وعلي ان اتخلص منه ، وفهمت ان العلاقات الطبيعية في جو غير طبيعي تجعلنا نبدو مضحكين بطبيعتنا . هل يمكن ان أكون أما صريحة واضحة وفعالة ... صلة وصل بين ابي وابني ... متواضعة وصامتة لا يسألني أحد لماذا اخترت لحظة العار لأحبل بالعار ...

سألني « صالح » يومذاك ، وكنا لم نلتق منذ انفصالي عنهم في « حران » :

— هل انت سعيدة في زواجك ؟ لقد علمنا انك حامل ، يسعدنا كثيرا ان يكون لك طفل ..

اجتاحتني موجة خجل عميق من نفسي وانا أتذكر أن صالح قد ودع اطفاله في نابلس ولم يعد لهم ابدا . بذلت جهدا كبيرا لكي ابدو طبيعية وهادئة دون ان اسمح لهم بادراك الهوة التي انا فيها ، والتناقض الذي احياه . والتفت الى صالح لأبدد اللحظة المقيتة :

— نعم يا صالح ، لقد وافقت اخيرا على ان اعود اما .

كان الطريق الى « عينتاب » متعرجا ويمر عبر الجبال ... يداي على مقود السيارة تتراخيان ... وجهي غارق في عتمة المستقبل ... اي مستقبل ينتظرنا ؟

على ضوء مصابيح الشارع لمحت ورما حول عين صالح اليمنى . اوقفت السيارة وتوجهت اليه بكليتي ...

مددت يدي أتحسس وجهه والهالة الزرقاء حول عينه وسألته اذا كان يرغب أن اتجه به الى البيت ليجري له زوجي فحصا سريعا . ولم أكن قد لاحظت ان « محمد » قد فقد ذراعه وانه يغطي مكانها بسترته العسكرية . لاحظ الرفيقان المفاجأة التي اصبت بها وحاولا جاهدين وبشجاعة التخفيف عني . مازحني محمد :

ـ نادية ... لقد كبرت قليلا ، يبدو ان الاستقرار والزواج لا يتفقان وطبعك ...

ظللت صامتة امام ممازحته . فلم يكن لدي ما اقوله ... استنجدت بشجاعتي . حاولت ان امنح نفسي الحياة وتذكرت ان الحياة لا تمنح اذا لم نوافق على الموت الكبير . لقد كف الموت منذ زمن على ان يرهبني ، واعتبرته قضية عادية يمكن ان تفاجئني في اية لحظة : اصطدام سيارتين ... عبور شارع ... رصاصة طائشة ... لا بد وان المعركة ستكون طويلة ولدي متسع من الوقت .

حين وصلنا عينتاب ، أتجهت مباشرة الى البيت مرورا بالمقاصير المدفأة جيداً... بالانوار المشعة . رأيت آلاف الوجوه ألتي تسكنها وقد تحولت الى قتلة ، وجوه تغرق في الويسكي والعطور وبقايا حسنات البترول ، والى جانبي في السيارة الوجوه الحقيقية لمقاتلين اختاروا الرفض والموت من اجل الحياة نفسها . توقفت امام بيتي ، هبطت من السيارة ، وعبرنا الحديقة المؤدية الى الطابق الاول ، احسست ان قدمي لم تعودا قادرتين على حملي ... حرارة رهيبة تجتاح جسدي ... رآني خالد من النافذة ، فأسرع باتجاهي واخذني بين ذراعيه . اسندت راسي الى كتفه

وهاجمتني رغبة حادة بالبكاء . كنت اعود الى بيتي بعد خمسة عشر يوما من الغياب أي منذ بدء المعركة في « حران » . دخلنا جميعا الى الصالة التي حرص زوجي يوم فرشها على انتقاء افخر الاثاث واجمله ، اطلت الاشياء من عيني تافهة وحقيرة ... اطلت ثروته في تلك اللحظة جثة نتنة . وتطلعت الى وجوههم . وطني هناك ولماذا ابحث بعيدا ؟ لم اجرؤ على ان اسألهم عن عدد خسائرنا . فقد احسست ان هنـاك سرا ما يخفونه عني ... لم اسألهم عن عصام ونايف ... كنت اعرف من الصحف انهم محاصرون منذ ثلاثة ايـام في احد بيوت « حران » وما زالوا يقاتلون .

بدونا صامتين كمشيعين في جنازة ... خالد ينظر الي ثم ينتقل بعينيه اليهم ويطرق الى الارض . دخلت امي علينا تحمل فناجين القهوة ، اسرعت نحوها احاول مساعدتها . قبلتني وانفجرت باكية ...

ـ انا هنا ، لماذا تبكين ؟ ما الذي حصل ؟

تركتني وعادت الى غرفتها وصمت تام يحط علـى رؤوسنا جميعـا .

على طاولة العشاء حدثني « صالح »عن قساوة المعارك الدائرة في « حران » واخبرني بعد تردد ان : « أم العبد » قد استشهدت أمام مكتب المنظمة . توقفت عن الطعام وحدقت في وجهه بجمود ... وجهها المدور وجسدها الممتلىء ... صوتها الجهوري وهي تحكي لي عن رحيلهم من القدس ... حلمها بأن يتحد الفلسطينيون ... كل ذلك قد انتهى ؟ وتذكرت شجاعتها وبساطتها ، حاولت ان لا ابكي .

انصرف الرفاق بعد أن تواعدنا على اللقاء في اليـوم التالي ووجدت نفسي امام زوجي وامي وابي ... امـام

الحياة الطبيعية اليومية ، امام معسكر الهدوء والترف . لم يحاولوا مناقشتي أبدأ ... ظلوا صامتين ، نظرت اليهم جميعا وتمنيت آن يقولوا اي شيء ، توجهت بالحديث الى زوجي :

ـ قل لي يا خالد : الا تعتقد ان تواجدهم هنا سيفجر الكثير من المشاكل ؟

ظل صامتا .

ـ لم تجبني ، هل تعرف ان صالح ونايف ما يزالان محاصرين ؟..

ظل صامتا .

ـ لماذا لا تتكلم ؟

مد يده يساعدني على الوقوف واتجهنا الى غرفة النوم .

عندما شممت رائحة فراشي النظيفة بعد تلك الايام شعرت بشيء من الهدوء ... حاولت ان اشرح لزوجي اهمية ان ينتصر الرفاق في « حران » ... ان يتوقف الرصاص عن تمزيق اجسادهم . وظل صامتا . احسست أن جدران الغربة التي عشتها حياتي كلها قد ارتفعت بيننا ولم يعد ينفع ان نعيش لحظات سقوط الاشياء . قررت أن اناقشه في قضية أستمرارنا معا ، لكنني شعرت في تلك اللحظة بألم حاد في البطن واحسست راسي يشتعل نارا . حاولت ان اغالب الالم لكن كان اشد من ان يكتم ، ولم اكن قد لاحظت تورم جسدي خلال الايام الاخيرة ... ثوان مضت ورايت الدميغسل كل شيء ولم أعد اعي .

مرت أيام ثلاثة وانا ملقاة في مستشفى الجامعة الاميركية

انازع الموت والحياة عقب عملية اجهاض قرر الاطباء ضرورتها بعد ان اكتشفوا ان الجنين قد مات في بطني قبل عشرة ايام .

فتحت عيني على وجهه الى جانبي ... وجه امي ... وجه ابي . ولم اكن قادرة على البكاء ولا حتى على الالم ... لقد غادرني الفرح منذ زمن ، والماضي يبدو حاضرا في ذاكرتي، بينما ينام المستقبل تحت ستار من الخوف وانتظار الموت .

مكثت عشرة ايام في المستشفى ثم خرجت الى البيت منهارة تماما . ارتميت في فراشي السلام والثروة كخرقة استرجع ذكرى الايام الاخيرة التي قضيتها في المخيم واشعر بسلام غامض ومؤقت ، كتلك السكينة التي تسكن روح المحكومين بالاعدام قبل الشنق بدقائق . لابد وان قتلى كثيرين كانوا يتمددون في تلك الايام على ارصفة « حران » ، بعضهم يتعذب ولم تفارقه روحه بعد . لا سيارات اسعاف ولا اطباء ولا اسرة نظيفة . هل جرحت ام العبد ثم ماتت من اثر جروحها ؟ أم انها انتظرت ثلاثة ايام واربعة قبل ان تلفظ انفاسها ، دون ان يجرؤ احد على الاقتراب من جسدها خوفا من الرصاص ؟. هل استطاع نايف الهرب ام ما زال سجين الاقبية هناك ؟ كنت اتعب من اسئلتي وعندما لا اصل الى اجابة انهض من سريري واتجول في غرف البيت كلها بحثا عن امي ، وعندما اجدها في حجرة الجلوس ، تتطلع الى السماء بعينيها ، اسند راسي الى صدرها وانتحب كالاطفال ... انهض من جديد وادور في ارجاء البيت مذهولة ... المح على الجدران عيونا كثيرة لاطفال اختنقوا تحت رماد الحرائق ... اسمع انينهم الموجع وكأنهم يرغبون بالشكوى ... اركض احيانا وامد يدي لالمسهم فأقع على الجدران الباردة . قلقت امي كثيرا بعد ان ازدادت نزهاتي اليومية في انحاء

البيت وحكت ذلك لزوجي ... جاءني في احد الامسيات محملا بالكتب وبعض الزهور ثم زرعها في غرفتي . لا ادري لماذا تحولت الكتب الى جثث سكنت رائحتها انفي ولم يعد بامكاني التنفس بشكل طبيعي .

صرخت في وجهه محاولة الدفاع عن نفسي :

ــ اخرج هذه الكتب من هنا ... اخرج هذه الجثث .

تظاهر بانه لم يسمعني... ترك الغرفة وخرج . نظرت حولي فرايت جثة نيرودا تنزف دما ، وجنودا مسلحين يرقصون حولها بينما قبائل غجرية تشعل النيران لاحراق جسد لوركا .. رأيت عيون اصدقائي السابقين ــ أقصد اصدقاء مقاهي المثقفين ــ تتناثر كالرصاص وتنزرع في كل زاوية ميتة دون حركة ... مددت يدي لاطفىء النور ، فوقعت على شيء حاد لزج، نظرت لاتأكد من أنني لم اجرحها او احرقها ، فرايت عين نيتشه في كفي تبكي بألم غريب وسمعت نحيبها . شعرت بحقد جارف على الذين يستطيعون البكاء ... لا شك انهم يشعرون براحة غريبة بعد تفريغ دموعهم .

حكيت ذلك لزوجي فقال لي : ان علي ان انام جيدا ، ناسيا أن النوم صنهت غامض متوتر ومستحيل في ساحات الحرب غير المعلنة .

اتجهت الى النسيان شيئا فشيئا ، وبفضل حقن « الفاليوم » المضاعفة وجدت القليل من الراحة ، راحة دفعتني الى الحياة الطبيعية ــ هكذا يسمونها ــ مرة أخرى . ابتدأت أقرأ ــ وربما التهم ــ جثث الكتاب واشعارهم ... استقبل رفاقي عندما يأتون للاطمئنان على صحتي ، اساعد امي في أعداد وجبات الطعام ، وعندما اراها حزينة امازحها قائلة : « اما زلت تصلين لاجلي ؟ » فتبتسم وتقول : « انك

بحاجة للصلاة ، اتمنى لو يهديك الله وتعودين لعقلك » .

كنت بالنسبة لها مجنونة دون ادنى شك ،فأنا املك كل شيء : الزواج، البيت، المال... ومع ذلك فما زلت مصرة على الجري وراء المتاعب والمشاكل . حاولت العائلة اقناعي بالابتعاد عن مواقع الخطر ، لاسيما وان « عينتاب » قد بدأت تعيش قلقا مغلفا بكل اشكال العنف ، لكنني ما أن استعدت قدرتي على المشي حتى طلبت من عصام في اول زيارة جاءني فيها انيصحبني من جديد الى المخيم . لقد اشتقت الى وجوه البسطاء الذين عايشتهم وعرفت مصائبهم. وعندما التقيتهم بعد غياب ثلاثة أشهر شعرت براحة كبيرة وبدأت اعود للحياة الطبيعية ... ادخل مكتبي في الصباح وبدلا منأن اقرأ (عفوا التهم) جثث اصدقائيالشعراء والكتاب، اغرق في التفاصيل اليومية لحياة البشر التي تبقى بالرغم من كل شيء حقيقة لا مجال للجدل فيها..استطيع ان اشك بمقولات ارسطو ... فكر هيراقليطس الشعري ... نظريات كوستاس أكسيلوس عن عالم مسطح لا هو بالجيد ولا السيء ... الازمة القصوى للامبريالية العالمية ... لكنني لا اقدر ابداً على تجاهل قدوم الشتاء وتهديد سكان الخيام بالرماتيزم والحمى . شوق عجيب للشمس سكن جسدي واستقر مكان الجنينالذي كنت أحمله في داخلي ، واستغربت كيف يمكن لنا ان نملأ بطوننا بالاكاذيب والطعام والاحياء والضحك .!

مات طفلي !

كنت في غاية التعاسة والارهاق . لقد حلمت زمنا بطفل عيناه سوداوان كعيون رجال الشرق . لقد حلمت زمنا بالولادة والحياة انا التي عاشت لفترة طويلة من عمرها

تعانق الموت وحده . ومرة اخرى لجأت الى صورة « ابـــو مشهور » وحاولت ان اعزي نفسي .

مرت بي اللحظات ثقيلة وانا اتحسس مكان الجنين . تخيلته يعيش ... يخبط بقدميه عتمة الاعمـــاق ... يصرخ بي ... يناديني ، يمسح على جبيني مخففا علي وطأة الحياة.

حاول « خالد » آن يبدل شيئا في حياتنا ... ان يهدم جدران الصمت والصقيع ... قال لي :

ـــ ما تزالين صغيرة ، وستحملين مرة اخرى .

ولم يصارحني بالحقيقة ... لم يقل لي ان الاطباء قد لفظوا حكمهم علي : لن اكون اما ابدا . لن اكون الا عاشقة لوجه طفل لن يأتي . آن هزيمة « حران » ثأر شخصي أعيش منذ ذلك اليوم وانا انتظر اليوم الذي اغسل فيه ثاري .

ومرت الايام بطيئة وانـــا الـــزم فراشـــي ... وجه « خالد » يذكرني بالحياة التي تجري خلف جدران البيت دون توقف ... وجه امي وابي يردني للغابات والبحر واشجـــار السنديان ... كتب الشعر تصل الجسور بيني وبين ماضي مرة اخرى ، في الشعر وحده وجدت سكينتي ، وعبر الكلمات الشجاعة لنيرودا استعدت وجهي الذي اضاعته المأساة ...

شوقي الى المخيمات يلاحقني ... شوقـــي للنســـاء والاطفال والشمس يغسل عني رهبة الموت التـــي سكنت شراييني . ما أصعب ان تحيا شوقك انتظارا !

كان الرفاق يعيدون وجودهم في « عينتاب »، والمخيمات الفلسطينية تلد أطفالا بعدد النجوم . بانتظار ان يكبر الاطفال وتزدهر آيديهم بنادق انتظرت طويلا . انتظرت اليوم الـــذي

يسمح لي فيه الاطباء بالعودة الى حياتي اليومية ، ولم يعد يجديني الانتظار .

رفاقي ، اولئك الذين تقاسمت معهم الحرب والخيام والخوف يأتونني في الامسيات الباردة ويحدثونني عن الصعوبات التي تحكم وجودهم . لقد تغيرت الساحة العربية ... مات الجسر الذي كان يربطنا باحلامنا او تهدم وكرت السبحة . تنازلات في كل مكان ... تنازلات وصلت الى صفوفنا فكادت تمزقها . سألت عصام اثناء احدى زياراته لي عن مستقبلي بينهم فأجابني :

— تعودين لقسم الاعلام ، أننابحاجة لك .

حقيقة اخرى كنت أعيشها : مات طفلي بالامس ، ربما قبل ذلك بشهور ... لست ادري ؟ قبل سنة وعندما كنت اطوف السحب بحثا عن وطني وثورتي قال لي ابو مشهور والطائرة تحط على الاسفلت اللامع لاحد المطارات : انني اسمع بكاء أطفال في الجو ... اصوات شبيهة بالاثير تخترق كل شيء ، أنصت قليلا لأتاكد من صحة مشاعره (لا يمكن لنا ابداً ان نفعل ذلك) ولم اسمعشيئا . قلت له يومذاك : انه قد بدأ يخلط ما بين الرغبة والحقيقة . ولم اكن بقادرة على الانفعال بكلمات « أبو مشهور » .

لكنه طفلي انا هذه المرة ، طفلي الذي حملته ثلاثة اشهر في داخلي ... شاركني في كل شيء ، في ممارسة الحب ، والمجيء الى المخيم ، وصياغة النشرات السياسية . وعزاني كثيرا انه قرر الاستقالة من الحياة باكرا حزنا على من سبقه في « حران » وربما خوفا من العار ، لقد كان اكثر مني صدقا . لقد حلمت زمنا بطفل عيناه سوداوان كعيون

الرجال في الشرق ... كنت اريده ذكرا لان الرجال قليلون في عصرنا ، وانا مصرة على خلق رجل او ايجاده . وعند كل وجه كنت اقف آملة او متأملة ، لكنني كنت اخلص ابدا الى ان الرجال بعد الخامس من حزيران سقطوا في قاع وادي النار حيث كانت تحولهم « ميدوزا » الى صخور سوداء غير قادرة على الحركة او الحب .

مرة أخرى لجأت الى صورة صديقي ورفيقي « ابو مشهور » ، حاولت ان أعزي نفسي والومها لانها انكرت — في غمرة الاندفاع — ان « ابو مشهور » كان سيد الرجل جميعا ولذلك حمل اوراقه وسافر الى الموت .

زوجي الرسمي الهادىء المثقف الذي يعشق موسيقى شتراوس وأشعار سان جون بيرس يعيش حياته بايقاع عجيب من السكينة وكأن الاحداث التي تقتلعنا جميعا لا تعنيه شيئا . الاستيقاظ في السابعة صباحا ، تناول الفطور ، قراءة الجريدة ، الانصراف الى العمل ، محرك سيارته يهدر في الثامنة الا خمس دقائق تماما ، وكنت استطيع ان اضبط ساعتي على هدير المحرك . في الثالثة ظهرا هدير المحرك مرة أخرى وطعام الغداء ثم الدخول الى حجرة النوم وقراءة بعض اشعار « باوند » الذي كان يعشقه كثيرا :

« قال للبغي لا تخافي ، اناعزرا باوند

لن أتركك ما دامت الشمس تلامس جسدك » .

فترة مكوثي في البيت جعلتني اكتشف زوجي وعاداته ولم يخالجني الشك بأنه قد اختار سلامه هو ... كون لنفسه وطنا في داخله ولم يعد يعنيه الوطن الكبير الذي نعيش فيه . قلت له ذلك مرة على طاولة العشاء فظل هادئا ... مستمرا في تناول قطعة الجبن الفرنسية التي يحرص باستمرار

عليها بعد الطعام . وعندما حاول جسدانا ان يقتربا في السرير أكتشفت انني لا استطيع ان اتجد بمملكة من القرارات والارقام والساعات الدقيقة الصنع . يا الهي ! منذ متى وانا اتعايش مع هذه الاشياء كلها ؟.

ليلة وحشية من ليالي صيف معسكرات الشمال ، لم يبق على خوض النهار الا ساعة واحدة وربما أكثر ، فانا لا اعرف كيف أحاسب الزمن . جاءني ابو مشهور في خيمتي يحمل لي أخر النشرات التي وصلتنا من « حران » وفيها اوامر تقضي بنقلي الى مكان آخر لاتابع تدريبي استعدادا للرحيل الى أوروبا... تمطيت بكسل وكانت الشمس لم تشرق بعد ... بعض نباتات الشوك التي لم انجح بقلعها من خيمتي انغرزت في ساقي فصحوت ... اخذت احدق بدمي وهو يسيل ببطء وفرح ثم قلت لـ « أبو مشهور » : أن الدم ينصت الى حكايا الحياة الرائعة . لماذا يموت البشر عندما تنزف دماؤهم ؟ حدق في وجهي بابتسامته قائلا : يمكن الموت معك ... كما تمكن الحياة . فوق الشوق والاغطية القذرة ــ عفوا النظيفة جدا ــ اتحدنا معا ورائحة الارض تتسرب الى جسدينا ثم تنشر شيئا من السحر على الهضبة المكسوة بشجر الزيتون . عندما رأينا وجهينا في الشمس ضحكنا وجمعنا اشياءنا بسرعة . واتجه كل منا الى معسكره ، لم نكن نعرف اذا كان الغد سيجمعنا حيين أم لا ؟

زوجي اختار سلامه الداخلي ... وطنه الداخلي ... عمر اسوارا حوله وعاش مطمئنا . لكن اي اطمئنان كان ؟! سألته مرة :

ــ لماذا تزوجتني يا خالد ؟.. انت تدري جيدا انني ...

لم يدعني اكمل عبارتي بل قاطعني :

ـــ لأقرأ فيك اشعارا لم اعرفها منقبل ، لأقول لك ان الحياة تعيش وقعها اليومي ببساطـــة وعادية ولاحاجة لان نقفز فوق التاريخ .

كان خالد مناضلا ذات يوم . ومع الزمن تحول الـــى مجموعة معادلات يبحث من خلالها عن السلام الداخلي الذي ظنه درعا تستطيع ان تحميه من غابة الاشياء التي نحياها .

جاء عصام الي ليلة راس السنة عام ١٩٧١ . خرجنا معا الىشرفة بيتي المطلة على « عينتاب » وبدت المدينة امامنا وهي ترمي بجدائلها الى البحر وينسحب جسدها خارج الماء زاحفا على ركبتين . رائحة زهور البرتقال والملح والاسماك تملأ الجو وتطغى على كلماتنا التي بدت متقطعة وسط اعياد المهزومين . ما أقسى أعياد المهزومـــين ! تبدو لك كطقوس جنائزية هزيلة لا تحكمها ابدا لحظة الحزن المقدس للموت .

ـــ مرة اخرى ، قررنا تنفيذ عمليات في الخارج .

صعقت ، فقد كنت اظن انهم صرفوا النظـــر كلياعن هذا النوع من السلوك الذي ادى دوره وانتهى ... بـــل تحول الى سلاح ضد الثورة بعد ان استغله المغامرون وعشاق الفضائح السياسية . كانتالعمليات الاولى ضرورية لخرق جدران الصمت الذي كان مفروضا علينا من قبل اجهزة الاعلام الغربية والعربية ... لكن أحداث أيلول في « حران » اكدت ان قاعدتنا الاساسية هي الجماهير العربية ولاجدوى اطلاقا من الذها بابعد من ذلك . قلت لعصام وانا اسمع صرخات « ابو مشهور » في وجهي ليلة عملية « جنيف » :

ــ لا يا عصام : لا نعودوا الى هذا النوع من العمليات التي أستنفدت اغراضها . علينا ان نركــز آلان على عروبة الثورة وربط جماهير البلدان المضيفة بنا . لو نشب القتــال مرة اخرى هنا لن نجد الى جانبنا سواهم .

وتظاهر عصام بعدم سماع ما قلت ثم استطرد :

ــ لقد جئتك من اجل ان تشاركي بوضع الخطة الجديدة لثلاث عمليات ستنفذ خلال شهرين في اوروبا ... تجربتك في الماضي تسمح لك برؤية الاشياء بشكل افضل من الرفــاق الذين لم يشاركوا من قبل .

استنجدت ببعض هدوئي حتى لا انفجر في وجهه قائلة : « لماذا الهرب من الحقيقة ؟ لماذا لا نعود الى تجربتنا السابقة وننقد اخطاءنا ؟ لماذا لا نقــدم تحليــلا لتجربة « حران » ؟ ان الجماهير فقدت ثقتها بنا » .

لاحظ الصمت العاصفة فسألني :

ــ كيف ترين المسائل اذا ؟

ــ واضحة ، عليكم بتركيز وجودكم في الجنوب قريبا من الارض المحتلة .. وخلق مناخ ثوري يربط الناس بقضيتهم . عندما ستقصف بيوت الفلاحين هناك لن يترددوا بالتخلي عنا اذا لم يكن لديهم سبب حقيقي يدفعهم للتضحية .

وبدأ عصام يردد على اسماعي عبارات كانت تثــير لدي الغثيان : المشاعر القومية .. التضحيات .. السياسة الدولية . وارعبني وجهه الذي بدا لي في العتمة لا يختلف عن وجه قادتي السابقين في الحزب .

خرجنا معا الى القيادة العسكرية ، فصارحتهم بوجهة

نظري . قلت لهم : لم اعد أؤمن بنقل صراعنا الحقيقي الى ساحات اخرى لا تعنينا مباشرة . وقلت لهم أن العمليات السابقة غطت على نضال رفاقنا في الداخل حتى بدت الحقيقة الوحيدة . قلت لهم أنني سئمت معاملة الناس لي كنجمة في الوقت الذي انتهى فيه رفاق لنا الى الموت دون ان يشعر بهم احد . قلت لهم : ان اصوات الاطفال والنساء في عمليات الموت تلك ما زالت تلاحقني ... تذكرت صوت سيدة في مطار لندن يصرخ بي : « أليس لديك أطفال تخافين عليهم ؟ » ويومها رددت عليها بهدوء : « لم يسمحوا لنا بانجابهم » .

لكن الظروف تغيرت ... وعلى رفاقي ادراك هذه الحقيقة ... « عينتاب » ليست « حرآن » و ١٩٦٩ ليست ١٩٧١ .

ظلوا صامتين يحدقون في جهي ببلاهة ، وعندما شرعوا بوضع خطتهم للاشهر القادمة بدأوا بخطف الطائرات ... حاولت الاعتراض مرة اخرى فسمعت صوت « نايف » يصرخ في وجهي :

— يا رفيقة ... يبدو انك تعبت . لن نطلب اليك تنفيذ أي من العمليات لكننا نرغب ان تقدمي خبرتك ، وهذا واجب ثوري ...

فجعتني كلماته ... احسست بالطعنة تصل اعماقي ... حملت اوراقي وخرجت . وهكذا افترقنا . مشيت بي رطوبة ليل المدينة البحرية وحيدة، وكان علي ان أعي انني ابتداء من تلك اللحظة سأواجه العالم كله وحيدة .

بعد ايام ، اشيع أنني قد تركت المنظمة لاسباب عائلية وان صحتي لا تسمح لي بالاستمرار ... ومنع عني الاتصال

بالقواعد كما ابعدت عن المخيمات ... وببساطة .. انتهيت بينهـــم .

مضت الايام الاولى بصعوبة بالغة . كان الليل يمضي وعيناي معلقتان في سقف الغرفة، وخالد الى جانبي يطلب الي أن أنسى واتفرغ لحياتي وكتابتي . ولم يكن يدرك ان النسيان صعب ، ولا مفر من مواجهة الالم الحاد الذي يسببه لي اي تماس حسي مع ذكراهم ، كأن البقايا تنفي عنا صفة الحلم المعزية وتعيد الينا نبض الحياة الحقيقية والواقع الذي كان . اذكر كما يذكر النائم حلما موجعا ، انني ليلة عودتي الى البيت ، بعد أن تركتهم ، جمعت كل الصحف التي تحدثت عني ... كل الوثائق التي كنت أحفظها عن عمليات خطـف الطائرات ... بعض خطابات الاعجـاب بشجاعتي ... واشياء أخرى صغيرة كثيرة لا تعني شيئا لسواي لكنها تحمل رائحة دنيا كنت احياها في مداراتي الخاصة قبل ان تقنعني الايام بعدم جدواها... اذكر انني جمعت من تلـك الاشياء ما استطعت واحرقتها ثم جلست أرقب لهيب النار في الموقد بهدوء بالغ ...

انقضت ايام من البحث المضنـي عن الحقيقة التـي تسندني وانا متوترة غضبا وخوفا من الوحدة . كنت اطوف في البيت كجنية تبحث عن شيء أضاعته ، وتعرضت لعاصفة روحية قلبت كل معادلاتي . لقد اكتشفت انني اعيش معادلات من نوع اخر غير تلك التي يحياها زوجي .. عاودت بحثي بيأس عبر الكتب وتراث الثورات فوجدت ان الهوة بينـي وبينهم سحيقة ... لقد الم بنا طوفان غريب فحمل كـلا منا الى جبل في هذه الارض.كنت احبهم كما احب سلاحي ...

اعرفهم كما اعرف نفسي واتمنى بصدق ان اكـون مخطئـة في تصوراتي . كان عزائي الوحيد قناعتي انني علـى حق وما فعلته كان لصالح الثورة ومستقبلها ..

خمسة اشهر مرت على فراقنا وانا احيا عذابا حقيقيا كان غربة تجتاح روحي ... غربة تتسلل الى قناعاتي وافكـاري واعماق مشاعري . خمسة اشهر وانا بعيدة قريبة ، والرفاق انقطعوا عن الاتصال بي . وسمعت ـ بل تابعت في الصحف ـ اخبار عمليتين خارجيتين قاموا بهما وكانت النتائج محزنة ... قتل ثلاثة من رفاقنا في أول عملية . وطرد عدد من مناضلينـا من بلد أوروبي دون أن نحصل على اي كسب .

خمسة اشهر مرت وخالد يعيش سمفونية سلامـه الداخلي ، وانا قطعة جمر تحترق في زوايا البيت الواسع ... الخبز رمادي ... السماء رمادية ... الفرح رمادي ...

حاولت ان اعود للحياة العادية ... ان اذهب برفقة زوجي لزيارة الاصدقاء ، ان أقرأ « جثث » الكتاب وفلسفتهم ؛ لكنني أستعصيت على الحياة اليومية كما استعصت علـي ايضا . وجوه اصدقاء زوجي بدت لي دون لون ... كانت مطاعم « عينتاب » مراكز ممتازة لتقديم السم في وجبـات منتظمة . الليل طويل ومسكون بالبرد والمجهول وصراخ اطفال المخيمات وقتلى « حران » ، وكان علي أن ارحل الى اي مكان في العالم يخلصني من العذاب الرهيب الذي اعيشه فـي « عينتاب » . عندما جاءني خالد يخبرني بترشيحه في بعثة تدريبية الى فرنسا قلت له مباشرة ودون تردد :

ـ سأرافقـك ..

فرح كثيرا ، فلم يكن يتوقع ذلك . حزمنا امتعتنا وودعت امي وابي ، تاركة « عينتاب » وفي داخلي قرار اتخذته في لحظات وحدتي : سأنسى ... سأنسى ... سأنسى .

وهكذا جئت باريس ابحثعن المراة في دمي ، لكنني عبثا فعلت . لم افارقهم ابدا وكان الليل هو العودة ... جسد زوجي قارب يحملني اليهم ...

كانت « حران » ترتسم امامي في شوارع باريس وتفاجئني في الزوايا المعتمة . وكم رأيت باريس تتحول الى « حران » وانا اقطع شوارعها على قدمي محدقة خلفي لاتأكد ان ليس ثمة من يتبعني لكي يسوقني الىالسجن . وكان منظر شرطي السير يفجر في داخلي ايام الاقبية في سجون المانيا فيرتعش كياني .

في الايام الاولى من حياتي في باريس لازمت البيت . كان خالد يذهب الى المستشفى في الصباح ويتركني في سريري احاول ان اغالب ساعات النعاس الاولى التى تهاجمني في الفجر بعد أن امضي الليل مستيقظة احدق في سقف الغرفة . وكان يقول لي دائما :

— نامي ، ان صحتك لم تعدتحتمل ...

انتظاهر بالنوم ، احاول النوم ، لكن عيني تستمران الى الصباحباحثتين عن تلك الجزر المنسية التي هجرتها .

وفي البيت حاولت ان اكون امراة ... حاولت ان اهتم بشؤوني وشؤون خالد الصغيرة ... حاولت ان اقرا ... ان اكتب ، لكنني اخفقت واصبحت حياتي محطة انتظار لآت لا ادري متىوكيف ومن اين . وبدت ليكذبة الاستقرار

مفجعة ... حقائبي مشدودة ومغلقة الجأ اليها كلما احتجت شيئا ... اخرجه بسرعة ثم اعيد اغلاقها من جديد منتظرة ان تأتيني ساعة اقرر فيها العودة .

رغم ضجة باريس كنت التقط أصواتهم الغاضبة ... نقاشهم ... نبراتهم التي تذكرنـــي بصوتي ، واحاول ان اتدرب بشكل لمنهجي على النسيان .

بعد وصولي الى اوروبا بشهرين كتبت رسالة طويلة لـــ « ماري روز » أسألها فيها عن اخبارهم ، وتطور الظروف من حولهم في « عينتاب » ، وتلقيت منها رسالة مقتضبة تخبرني فيها : بأنهم محاصرون والمعركة لا بد آتية . ثم ذكرتني في نهاية الرسالة بأن علي أن اهتم بصحتي واحاول انجـــاب طفل . لست ادري لماذا كانت « ماري روز » تتحدث عـــن صحتي وعن الطفل ؟ ربما اقنعتهم القيادة بأنني فضلت حياة الزوج والبيت على حياتي كمناضلة في صفوفهم ... ربمـــا لم يتحدثوا عن خلافاتنا ، فرسالة « ماري روز » ليس فيها ما يدل على انها تعرف شيئا مما حصل ... كتبت لهـــا رسالة مطولة أشرح فيها ظروف تركـي المنظمة وقناعاتي الحالية بكيفية العمل والاسلوب الممكـــن ، ولم اتلق اي جـــواب .

كانت « عينتاب » قد اقتربت من أشتعالها وانا احاول النسيان ... أتحلل في اثير الرغبـــة بالحياة العادية ... اذهب الى السوق واشتري اشياء كثيرة واعود بها الـــى البيت ، وعندما اعرضها امام عيني من جديد اشعر بنفاهتها وسخافتي ، فاحطمها والقي بها في سلة المهملات .

جاولت ان اعيد للبيت حياته ... ان اكون زوجـــة وانسى انني خذلت في ساحات النضال العربـــي . اعيش

حياتي الجديدة ... حقيقتي الجديدة وانسى ، لكن صورة « ابو مشهور » ظلت تلاحقني . ورأيتها في كل مكان ، وكثيرا ما كانت عينا « علي كارلو » و « فرحان » تأتيان في الظلمة وانا أتنزه على الرصيف المحاذي لمحطة « اورسي » حيث يقعيبيتي فتسد علي الطرقات والمنافذ . لقد سكنوا جسدي وجعلوا مني ساحة معركة متنقلة ... أخطر من الساحات الثابتة جغرافيا . سكنا الصمت او بالاحرى سكن كل واحد منا صمته . بدأ خالد يغيب عن البيت ، وكثرت نزهاته اليومية على رصيف « اورسي » : هل كان يبحث مثلي عن شيء فقده ؟ جاءني ذات يوم وقد حطمت كل معادلاته... ثملا ومتعبا ... سقط في فراشي وحاول ان يعبر جدراني، وفي لحظة صمت اخرس انفرجت شفتاه عن سؤال نسيته :

ــ الا تفكرين بانجاب طفل ؟

كنت قد نسيت تلك الرغبة ... اجبته :

ــ لنفكر بهذا فيما بعد ، علينا ان نعود الى الشرق قبل كل شيء .

صرخ في وجهي بغضب حقيقي :

ــ لقد كنت سببا في قتل جنينك . حياتك اللامعقولة هي التي قتلته . والان بعد أن استقر بك الامر ترفضين ممارسة دورك الطبيعي . اما كفاك تشردا وعذابا ؟. لقد عرفت مطارات اوربا تحت ظلام الدم والموت في اية دقيقة ... لقد وجدت الموت في «حران». لقد هجرت كل شيء للالتحاق بهم، وماذا كانت النتيجة ؟

احسست ان كلمات « خالد » تفتح لي ابواب مدن الحزن والماضي . انتفضت من السرير واقفة ووضعت معطفي فوق

ثوب النوم ثم انطلقت الى الشارع احمل جسدي ووجهي وغربتي ... لقد آخفقت بالنسيان ... وما زالت ذكراهم تدفع بي الى أقصى الدائرة . ظللت يومها اطوف شوارع باريس كالمجنونة ... اتوقف امام حراس الليل والمقاهي المطفأة ... استند للجدران واصرخ ... اسمع صدى صوتي يمزق الليل والجدران ونوم السادة المتخمين ، وعندما عدت الى البيت لم اجد زوجي ، بل رسالة يقول لي فيها انه قرر الاستقرار في اوربا ، وعلي ان اتدبر حياتي ، كما يذكر لي انه يمكنني طلب الطلاق من سفارة البلد الذي ننتمي اليه ...

اضحكتني رسالته كثيرا .. أضحكتني قوانين المهزومين وسفاراتهم وسفراؤهم وحرصهم على الشكليات والكلشيهات التي عاشوا ضحايا لها . اية سفارة واي طلاق ! فأنا لا احمل اسم بلد معين ... جواز سفري الثالث او الرابع — لم اعد اذكر — يحمل اسم بلد لم أولد فيه .. اسم امراة اخرى غير تلك التي تزوجها . فقد حرصت حكومة بلد عربي تقدمي على تزويدي به عشية سفري الى اوربا خوفا على حياتي بعد ان كانوا متأكدين من أن اسمي الحقيقي غدا معروفا في سجلات البوليس ودوسيهات المخابرات في اوربا كلها . وأذكر ان قنصلهم العام في « عينتاب » اكد لي يومها ضرورة عدم التنقل والسفر بين البلدان الاوروبية، كما طلب مني الامتناع عن القيام بأي نشاط سياسي . وقبلت شروطهم لانني كنت بحاجة للرحيل الى اي مكان في العالم بعيداً عن « عينتاب » . كنت بحاجة للنسيان والخلاص بعد أن هدم الرفاق كل الجسور التي تربطني بهم .

جلست في البيت وحيدة أفكر بما يجب علي عمله بعد ان

قرر خالد اللجوء الى ساحات سلامه الخاصة مبتعدا عن كل ما يذكره بالوطن الذي تركناه في حالة اشتعال وغليان .

هل اعود الى «عينتاب» ؟ ام استقر فترة في اوروبا احاول فيه النسيان والتعود على الغربة ؟ ان رفاقي – اخوتي ، وليس لي من أهل او عائلة سواهم ، قد قطعوا اتصالهم بي . رسائل ماري روز انقطعت منذ فترة ، وعلمت ان « نايف » قد مر في باريس ورفض الاتصال بي . كتبت رسالة مطولة الى عصام أكدت فيها على موقفي السابق وطلبت اليه ان يدرسوا من جديد قضية التحاقي بهم ... انتظرت اجابته طويلا ولم تـــأت .

كان علي ان اقرر بسرعة قضية مستقبلي الشخصي ، لان رفاقي لم يكونوا قلقين من اجل ذلك . واكتشفت الحقيقة المرعبة : لا احد يستطيع ان يكون مكانك في حسم مسائلـــك الشخصية . كأن تأخذ هـــذا الطريـــق بـــدل ذاك خوفا من المفاجآت ... ان تدفع اجار بيتك وثمن طعام اطفالك ... ان تذهب الى الطبيب بنفسك فتشكو له الحمى التي تلاحقك ... هذه هي اشيائي الصغيرة كلها نبتت لي فجأة في ظلمـــة الوحدة التي بدات تلاحقني في باريس .

افضى بي البحث الى عمل في أحدى السفارات العربية (وما اكثرها !.) . اخفيت عن الجميع حاضري ومـــاضي واستأجرت غرفة صغيرة في الحي الرابـــع عشر ثم بـــدات رسائلي التي لم تنته ابدا الى الرفاق . الحياة العادية اليومية ... عربات المترو ... اروقة الجامعة ... وجوه الجارات ... الفراش الذي ينزف ثلجا وغربة . وقررت النسيان... بدات امارس النسيان بشكل ممنهـــج . أستيقظ في الصباح

واقرر أن اعيش يومي ، اغرب في غرفتي واشرب كأسني على رصيف مقهى . ادخل مكتبي واعطي تأشيرات دخول للسواح الراغبين بالتفرج على مآسينا . احدثهم احيانا عن شجر القات والنخيل ، وعندما ألمح اهتمامهم اكثر اجرحهم بالحقائق التي ترعبهم : « لن تجدوا حمامات تغسلون بها معداتكم المتخمة » . « ممنوع دخول الكلاب الى بلادنا » . « ستصابون بالجـــدري والملاريا » . كنت اجمع جملي وتناقضاتي واعود الى البيت . التقي بوجهي في جثث الكتب ، أهتف للباهي عندما تجرحني سكين الوحدة ويأتيني ليقوم بمراسيم الدفـــن المعتادة ... نشبك ايدينا معا ونطوف الشوارع نشتـــم الحكـــام ... الزعماء ... الساسة ... الكتاب ... الاحزاب . ثم نهتف لصديقنا السفير الغاضب « محمد » وندعوه لعشاء رخيص في حي « باربيس » لا يتناسب وثروة بلاده التي تقطر بتـــرولا وتخمة ونساء .

احاول أن انسى ...

التقي بنفسي احيانا ... بوجهي الـــذي نسيت ... احاول أن أكون قريبة مني ... أحاول ان اعرف معنى الايام التي عشتها او ساحياها والجرح في داخلي يلتئم لكـــي يعود من جديد فينزف حزنا . عدت للشعـــر ورأيت صورتي على الورق عجوزا شاخ وابيض شعره ، رأيت الوطن في صوت الباهي وقد تحول الى كأس عرق وصحـــن تبولـــة واغاني فيروز .

الرجل الوحيد ... الرجل المنصف « محمد » شـــدني من يدي وعاد بي في رحلات مجنونة الى الصحراء ، حـــدثني عن « عمر بن الخطاب » عن « المتنبي » عن « ابن الدمينة » ثم روى لي بعد ذلك كيف اختار أن يعيش ضمن معـــاهدات

لا تمس أحداها الاخرى . واكتشف أننا جميعا بحاجة الى المعاهدات ! لا فرق ، لانني أعيش بانتظار النسيان .

فرانك !

غدا ارحل عن باريس ، انتظر عودتي كعاشقة على محطة والثلج يغسل شعرها وعينيها . الثلج هنا واشعل الجسد بالنار التي تمزق صمت « عينتاب » ، بالرصاص الذي يسقط الفرح والحلم والانتظار ويبني مملكة وحشية .

قبل ان نلتقي جثتين تنبضان بحرارة الدم (اذهلني ان جثتينا تنبضان) كنت في مرحلة الاقتراب من شاطىء الاستسلام للواقع اليومي ... للحياة التي ابتدأت أكتشف صعوبة ان نعيشها دون الم ، ولكن الافظع منذلك ان نحياها دون فرح .

رحلة النسيان والتخدير تتحد بي لتنتهي في كأس براندي واوراق الكتب ... تناسخ الارواح ... الفرح الموعود ... فكر هيراقليطس الشاعري الشعري ... صرخات نيتشه... هاتف من صديق يسأل عن صحتي ويطمئن الى انني ما زلت احيا لاتحمل حقدهم .

قبلك أدمنت الغربة ... ادمنت النسيان ... أدمنت طقوس الدفن على طريقة الباهي :

دفن مصحوب بملصقات العرب ... اشعار لبيد والشنفرى وعروة بن الورد. قبلك سكنت الى صديقي السفير الغاضب « محمد » وحدثته عن الايمان والسهرودي ورابعة، باختصار ادمنت اللاحب وتشردت حتى تعبت الارصفة من اقدامي .

قال لي « محمد » بالامس وهو يمسح على راسي : ماذا تطلبين من الزمن ؟

قلت والدمعة تكاد تنزف من جسدي كله : ان احتمي من المطر والمارة والسيارات العابرة ...

قرب « محمد » وجهه من ركبتي ، وقبلهما ثم رفع عينيه الى وجهي : انني اعشقك يا سيدتي .

وحاولت عبثا ان اشرح له ان الحب عملية ملكية مغلفة بالكثير من عبارات اللغة الكاذبة . لم يصدقني ، ظل يتذكر بعض أشعار عروة بن الورد وطرفة ومحي الدين بن عربي .

فرانك ... قدمت الي من غابات الصقيع ... من ليالي النار والتشرد في موانىء القارات . فجرت في داخلي بؤس الذكرى ... اوه ما اشد وجع الذين يملكون ذاكرة وتاريخا !

هكذا نلتقي ... هكذا التقينا .

هل انا اعشقك ؟ لا ادري ... انت الموجة الراحلة الى شواطىء النسيان حاملة على وجهها اعشاب البلاد الاستوائية .

كنت اتحد بك (لم أكن أتحد بنفسي) ونتحدث معا عن مارلو وجيد ونيتشه والتوسر وميشو ... كنت أحاول الانتساب الى سواهم — رفاقي الذين احب . لكن اي انتساب هذا ؟ انا الوارثة للدم والزيتون وشجرات النخيل ... هل رأيت نخيلا يعيش في البحر ؟

استنجدت بك عبثا ، واحتميت بصدرك في مرات كثيرة،

محاولة ابعادهم عن عالمي لكن الموت هو الموت والوطن هــو الوطن ... والحرب الاهلية غير الحرب .

لقد استيقظوا ولعلهم ينتظرون .

انني عائدة الى « عينتاب » واعرف انها تحترق ... سأتحد بهم ونبحث نبحث عبر الاخطار والنار والموت عن افق اخــر .

تحباتي ــ اقبلك

نادية .

جمعت نادية اوراقها واتجهت الـــى باب المقهى ...
تركت السكارى والدفء وزمن الكرز فاتحة صدرها لليل.ورياح تشرين الباردة . استدارت منعطفة في شارع (جوردان) مارة بمحطة مترو «بورت دورليان» . توقفت في زاوية الشارع تسمع صوت الليل الذي غدا رتيبا في تلك الساعات . مر بها احد « صعاليك الحي » يتمايل مترنحا ويرفع بيده زجاجة نبيذ فينسكب ما بقي منها على راسه . خافت قليلا وحاولت ان تسرع خطاها ... رفعت راسها تتأمل النوافذ العالية ، وقد اسدلت ستائرها واطفأت انوارها . لم يبق في هـــذه الساعة من بشر في الطرقات . لم يبق من نور يضيء العالم . بشـــيء من الحزن تذكرت « عينتاب » التي تحترق الان ولا تعرف النوم منذ سنة بينما المدن الاوربية ترقد دون تعب ... دون ارهاق . انعطفت في شارع بونيير عابرة المقهى الذي تعودت ان تتناول فيه قهوتها الصباحية. مرت ببيت « لينين » في الرقم (٢٤) من الشارع ، وتسمرت قليلا أمام الاحجار الزهرية التـــي شهدت دون شك لمسات ذلك الرجل العظيم . اسندت راسها الى الحائط المقابل وظلت جامـــدة .. تذكرت كيف وقفت مندهشة لدقائق امام البيت وفرانك يشرح لها تاريخ دخـــول لينين.باريس لاول مرة . هاجمها الحزن الليلي وكأنها انتهـــت لدقائق فقط من تأبين الرجل الذي عشقت . لقد مات لينين منذ زمن . مات دون أن يمر بـ « عينتاب » وها هي مضطـــرة ان

تأتي هنا ... تتكلم لغة اخرى ... تعانق وجوها اخرى ... تعيش أياما اخرى حتى تستطيع ان تكتشفه جيدا .

حاولت ان تجمع صوتها من داخلها ... ان تطلقه في فضاء هذه الوحشة الانسانية التي تحيط بها ... أن تقــول أي شيء تسمعه بأذنيها لتتأكد انه يقال ، وانها ما زالت تحيا والدم يجري في عروقها . لكنها وجدت صوتها يهرب منها... يخونها ، وتذكرت ان بيتها هو في الشارع الاخر وعليها ان تجمع جسدها وتسرع الى فراشها لتنام وتستيقظ غدا فتجري وراء عربات الموت والنهار المرهق .

ما ان خطت خطوة حتى تذكرت حشرتها ... وجعلها مرور هذا الخاطر في راسها تتسمر امام بيت « لينين » . مدت يدها واستندت الى الجدار حتى لا تهوي على الارض . ستعود الى البيت ... هناك ستقابـل الحشــرة وتسمعها وتأنس لصوتها حتى صباح الغد . قد تجد الجدار مهدوما ،وربمــا كانت الحشرة قد وصلت الى صورة امها وابيها وخارطــة الوطن ... ولعل الحشرة لم تستطع ان تبتلع خارطة الوطن فاختنقت ...

عندما وصلت نادية الى هذه الفكرة شعرت بشيء من الراحــة .

يمر بها عابر درب ... عابر اواخر ليل متعب . يظنها احداهن ... يمد يده فيشد بذراعها :

ـــ تعالي معي ! سأدفع لك ما تشائين ... بيتي ليس بعيدا ..

يحاول جرها بالقوة ... تصرخ ... تخلص نفسها من قبضته وتسرع باتجاه (هنري رينيو) . وامام الرقم (٦) تتوقف

لاهثة وحيدة ... تنظر خلفها : لقد مضى الرجل تاركا قهقهة عالية تخرق ظلام الطريق .

تصعد السلم الخشبي العتيق مسرعة ، وامام باب غرفتها تتوقف قليلا ، تبحث عن ظلام السلم عند النور ... يتناهى اليها صوت الحشرة من الداخل رتيبا ... ترتعد ، تستدير محاولة الفرار ولكن الى اين ؟ كانت المدينة نائمة والمقاهي مغلقة الابواب ، وفرانك بعيد عن باريس ... بل هو في قارة اخرى ... محمد يغرق في حضن زوجته الجميلة مغمورا بدفء البترول ، بينما باهي يركض ومنذ شهور يرفض ان يقوم بمراسيم دفنها، فقد تعب من ذلك وقال لها صراحة:

« انني ابحث عن دور اخر غير حفار القبور ، لقد قل عدد الموتى المحترمين ، وانت جثة في غاية الاحترام » .

استجارت بشجاعتها التي عايشتها ايام الحرب السرية غير المعلنة بينها وبين الاف الاشباح والرجال المقنعين ... لا فائدة من ذلك ... تذكرت شمس الشرق وبيادر مدينتها الساحلية. اكوام القش الفضية وثمابين كثيرة تضاجع بعضها بسلام ... لا فائدة ... ان الحشرة شيء اخر . استجمعت كل جبنها وقلقها وضربت الباب بقدمها ثم انسلت الى الداخل ...خلعت ثيابها واوت الى سريرها ، فغدها سيكون حاسما. شرعت تعد الارقام مبتدئة من الصفر ... من رماد الاشياء ، واحد ، اثنان ، ثلاثة ... لا نوم ... عيناها تحدقان في المدفاة ويرتعد في داخلها حزنها .

(هذه الليلة سأنام ... ما لي وللحشرة ؟ ... لتقرض الجدار ، لتصل صورة امي وابي ووجه فرانك وخارطة الوطن ... لتهدم الجدار ، فلست من بنته . سأطرد من

البيت وسأجد بيتا اخر لا حشرات فيه ... ربما سأسافر ايضا الى مكان اخر) .

أشعلت النور فوقعت عيناها على غرفتها من جديد ... باردة غرف النساء الوحيدات . باردة ، فارغة من كل شيء . . واكثر برودة منها بيوت النساء اللواتي يضاجعهن الازواج كواجب لا بد منه ... ان الزهور ميتة في اصصها ... سريرها بحر نضبت مياهه .

عندما اقترب النعاس من عينيها تذكرت انها لم تخلع حذاءها بعد ... أشعلت النور فوقعت عيناها على بقايا سجائرها وغليون في الزاوية ورائحة جسده ... نظرت الى المرآة فلمحت وجها لامرأة قابلتها صدفة ذات يوم قريبا من جدار مقبرة . كانت المرأة تنحب بصمت ، وعندما سألتها لماذا تبكي اجابتها : انها تبكي المدينة التي ماتت في لا مبالاتها . تنفست بفرح . لماذا لا تحاول أن تبكي هذا العالم الذي مات في لامبالاة ؟ رات عينيها تضيقان عن البكاء والدمع ... تضيقان حتى تختفيا من وجهها ... تلمستهما وشعرت بقشعريرة تغتال جسدها ، صوت الحشرة يعبر مع القشعريرة . أطفأت النور مرة اخرى وحاولت ان تنام .

مثلما الاوطان والبلاد البعيدة ، النوم ايضا حبيب شرس يحتاج للصبر والثورة ، تحسست جبينها ، فألفته باردا كالثلج . صوت الحشرة ... صوت العاصفة في الخارج ... سمعت صوت انغلاق النوافذ بشدة . وبدأ لها « ابو مشهور » بوجهه الحزين كوجه مسافر مضى دون وداع . اقترب منها ... امسك بيدها ... كانت نظرات قاسية تطل من عينيه . سمعت صوته يأتيها :

— اين خلاصك يا نادية ؟ انت هنا بقايا وطن وامـــراة ومقاتلة .

حاولت أن تجد الاعذار لنفسها :

— في الليل ارتجف بردا ...

طرح سؤاله بشكل معكوس :

— الى اين تهربين ، من ارض الى اخرى ، من ميناء الى ميناء باحثة عن الثورة في جلود الاخرين ؟ ان الثورة في داخلك وعليك أكتشافها ..

رددت نادية متجاهلة عباراته :

— في النهار تسحقني عربة المجتمع الاستهلاكـــي . في الظهيرة أغرق في تصوراتي عن التقدم والثورة .

صمت « أبو مشهور » وغاب ... عيناه الحزينتان ركبتا من جديد قطاراً يسافر الى الافق ، وشعرت نادية لـدقائق بأنها تتنفس الصعداء ...

حاولت ان تنام عبثا ... الصوت ما زال يلاحقها . اختلط صوت الحشرة بصوت « أبو مشهور » بصوت صلوات امها البعيدة ، وهربت الدماء من جسدها .

لتكف عن الهذيان، قالت ذلك لنفسها واغمضت عينيها .

استيقظت نادية في اليوم التالي على صوت الهاتف ، كانت ما تزال تعيش احلام ليلتها السـابقة : الرعب الذي لاحقها . الصحوة التي هزتها ... وأدركت ان عليها أن تتخذ قرارا . لقد انتهى فرانك من حياتها . فقـدته منذ فقدت

اطمئنانها المقيت واستسلامها للزمن ، ولم يعد ينفع لا النسيان ولا الهرب .

حملت سماعة الهاتف فجاءها صوت فرانك بعيداً تمزقه المسافات ... تمزقه حرارة القارة التي تضمه في تلك اللحظة ، قال لها :

ـ الشمس حارة هنا ووجهك معي . سأعود اليك ببشرة برونزية .

استمرت صامتة . تابع :

ـ لقد انتظرت ان تأتي ، حاولي أن تحصلي على اجازة .

استمرت صامتة . تابع :

ـ لقد التقيت رفاقا سابقين ، لقد التقيت وجوها ودعتها منذ زمن .

وكادت أن تصرخ : « فرانك ! لقد مت في داخلي ، فرانك لقد انتهيت البارحة من مأتم الدفن ! » لكنها ترددت امام لهفة صوته .

ـ تكلمي ! قولي اي شيء ! حدثيني عن نفسك : ماذا فعلت ؟ هل انت سعيدة ؟

وتكلمت اخيرا .

فرانك ... افتقدك ولا اشتاق اليك .

وفرانك يدرك جيداً الفرق بين الشوق والافتقاد . أحست به ينطفىء على الطرف الاخر ... وتمنت لو انها لم تقل ما قالته .

ـ فرانك... لقد ذهبت الى الطبيب النفسي بعد رحيلك فقال لي : انني وطن مجروح يمضي في هذا العالم .. قال لـــي ...

وقاطعهـــا :

ـ انتظريني .. سأصل غدا ...

وضعت نادية سماعة الهاتف وأسرعت ترتدي ثيابها ، فقد تأخرت عن عملها . اسرعت تجـــري باتجاه محطـــة المترو ... مرت بالمقهى في نهاية الشارع حيث اعتادت ان تلتقي فرانك في الامسيات الباردة . تذكرت انه خذلها البارحة واغلق ابوابه . عندما وصلت الى جسر « باسي » حدقت بتمثال جاندارك الذي يستقبل المدينة ورات وجه السيد نقيا وصافيا . دخلت مكتبها وبدأت بترتيب اوراقها ، كانت قـــد صممت بعد أن تنتهي اليوم من علاقاتها في باريس ... ان تدخـــل الى رئيسها وتخبره بأنها ستـــرحل . ستعود الى « عينتاب » حيث رفاقها . وهناك ستموت أو تخلق ثورتها. كتبت استقالتها على ورقة واستراحت . شعرت للمرة الاولى منذ عرفت الغربة انها وجدت اخيراً مرفأ لهـــا .. مرفأ تستطيع ان تلقي بمراسيها في وجه مياهه . دخلت مكتب رئيسها ، ودون مقدمات ، عرضت عليه استقالتها ... حدق في وجها وبدا انه لم يفهم ما تريد .

ومن غير أن تناقشه ، خرجت مسرعة الى الطريق ... عبرت ساحة « التروكاديرو » ، توقفت قليلا تتأمل التماثيل الكثيرة المحيطة به . انها تمثال هي هذه المرة ... لقـــد كانت ميتة وها هي تنهض الآن .

في المنعطف المؤدي الى شارع « هنري مارتان » حيث تستلقي بكسل شبيه باللامبالاة اكثر سفارات العالم العربي ،

لمحت الباهي يقطع الشارع ... لوح لها بيده من بعيد وسألها بصوت مرتفع اذا كانت ما تزال حيــة ... هزت راسها بالايجاب ، وعبرت رصيف السين من غـــير ان تتوقف . ها هي في ساحة « دوفين » من جديد تحاول استنشـــاق رائحتها . تماما كما يفعل المساجين في لحظات خروجهم من زنزاناتهم ... ان باريس كلها سجون وزنزانات ... عن اي خروج يمكن لنا ان نتحدث ؟ التجأت بهدوء الى جـذع شجرة سنديان عتيقة ... مسحت على جذعها بحنان ... مسحت خدها ببرودة الخشب الحي ... حاولت ان تبعد الاوراق الميتة عن قدميها . وحيدة كقطة ضائعة ... تركض وتلتصق بجذوع الشجر ، من شجرة الى اخرى ... كيف لم تكتشف في الماضي حنان الشجر والجذوع !. تسرع الى مدخل بيته ... تصعد الدرجات القليلة ... تسمع خرير السين ونباح كلبة نجمة السينما المشهورة ... تتذكر وجهها في احد الافلام على عرض الشاشة وهي تقبل عشيقهــا ثم تطعنه بخنجر حاد مسموم شحذته اياما في صمت وحدتها ... تشم رائحة العفن في كل شيء ، وتتذكر انها راحلة .

كانت ينابيع نسيان وتخدير تجري من جسدها وتغسل الجدران والارض التي شهدت لقاء جسديهما . « لوحــة سيزر الممزقة » ، صورته في قاعة المحكمة وقد انطرحت على الارض كجثة ، اشياؤه كلها . مكتبته ... تبغه ... خزانة ملابسه ... مخطوطة آخر رواية يكتبها . لا بد وانه سيتحدث عنها في نهاية الرواية . حسنا .. لقد منحته مادة جديدة للكتـــابة .

عجبا ، كيف تفقد الاشياء دلالاتها ؟ الاشياء التي نحب ونعتقد انها حدود عالمنا ؟.

تضع اوراقها التي كتبتها في الليلة الماضية في ظـــرف وتغلقه ثم تلقي به على مكتبه فوق جثة الرواية . عندما تهم بالخروج تستوقفها الساعة التي كانت تقف منذ زمن على السادسة الا عشر دقائق ... الساعة تقف على السادسة الا عشر دقائق منذ عرفته . عادت وحركت الســـاعة من مكانها . ادارت عقاربها على ساعة اليوم ... ان الزمن لا يتفرج هذه المرة على جنونها !.

في الماضي ، كان الزمن قد تجمد في شرايينها ... ام تكن تعرف ان هذا اليوم سياتي . كانت قد نصبت خياما لبدوية قادمة من الصحراء في ظل عينين زرقاوين ... وعلى حدود جسده ووعيها كانت تقتل ما تبقى لها من عمر .

الشقة صامتة ... لا حشرات تطلق في فضاء راسها رغبة بالحرب لا بالعيش ، لا وجوه زائرة في الليل ... الشقة تدل على ان صاحبها قد صالح نفسه ... صالح الزمن ... صالح الخيبات كلها .

تهبط السلم مسرعة الى الساحة من جديد ... تلمح وجه صاحب المطعم الجزائري في مدخل العمارة ، تحييه بهزة من راسها وتسرع الى قصر العدالة ... تتسلق الدرجات القليلة المؤدية الى ابوابه الواسعة ... تتلمس جدرانه ... البناء ما زال مكانه ولا بد انهم سيبحثون طويلا عـــن عدالة تسكنه .

الـــى اين ؟

للمرة الاولى تتساءل الى اين تتجه . مكان الماضـــي

يدفعها غريزيا باتجاه عملها او بيت فرانك او بيتها . لكنهـا الان تتساءل ، تكتشف قدرتها على طرح الاسئلة . الاسئلة التي نسيتها في الماضي .

امام الشاليه المطل على النهر تتوقف دقائق متأملة مياه النهر التي زاد الشتاء من ارتفاعها . وعلى يمينها تبدو كنيسة « نوتردام » صامدة بدهشة كأنها شاهد ابدي على استمرارية الحياة .

لماذا تبدو باريس اوسع مما تعودت ان تراها ؟ لمـاذا يبدو « السان ميشيل » ذا وجه طفولـي ، وغريبا هـذا الصباح ؟

« لم آت بعد » . تسمع صرختها في الاعماق متـوحشة مهذبة ... تتشم رائحة المدينة والنهر وتتعرف الى الوجوه التي تمر بها . فكرت ان تهتف لاحد أصدقائها في هذه المدينة وتقول له : انها راحلة الى « عينتاب » ، ولكن ما الفائدة ؟ سيفتقدها الباهي لانه لن يجد من يدفنه ... سيقول « محمد » انهـا كانت مجنونة ممتازة . سيشرب « أحمد » نخب رحيلها . وبعد ايام سيغرقون جميعا في اجساد نسائهن وعشيقاتهن ويبقى سريرها وحيداً . تسرع الى اول مكتب سفر وتطلب الـى الموظف حجز مكان لها الى « عينتاب » ، يحدق بها ببلاهة أوروبي يعرف مهنته جيدا :

ـــ الا تعرفين يا سيدتي انه ليس من طائرات الى هناك؟

« ليس من طائرات الى هناك » تردد عبارته ودهشة غريبة تطل من عينيها . هل نسيت حقا ان السفر جوا الـى « عينتاب » لم يعد ممكنا منذ اشتعال الحرب ؟ ... ايـن تعيش ؟ هل نسيت حقا ان المذابح تغسل الشوارع والدمـاء تصبغ كل شيء ... اين تعيش ؟ تركت وجه الموظف الحيادي

وانطلقت الى الطريق ... سارت على غير هدف وعندما وجدت نفسها أمام مقهى « كلوني » تخطت الرصيف المقابل ودخلت لتستقر في زاوية من زواياه .

حاولت ان تجمع نفسها . لا بد من ايجاد وسيلة للسفر الى « عينتاب » . لماذا لا ترحل الى بلد عربي قريب من حدود « عينتاب » ، ومن هناك تجد وسيلة ممكنة تنقلها اليها؟ ولكن ماذا لو قبضت عليها سلطات تلك الدولة بتهمة « الوعي » ؟ لا بد وانهم يخافون « وعي » العائدين مثلها . ليكن ! ستسافر ... بدت لها الفكرة معقولة فجمعت اوراقها عن الطاولة وخرجت مسرعة باتجاه وكالة السفر التي كانت فيها منذ ساعة . وقفت امام الموظف الحيادي وطلبت اليه ان يحجز لها مكانا الى عاصمة ذلك البلد المجاور ، مرت اجراءات الحجز بسرعة وكان عليها ان تغادر باريس في مساء اليوم نفسه . اخذت بطاقتها من يد الموظف واتجهت الى بيتها على عجل. عند المدخل التقت وجه جارتها التي تشغل الطابق الاول ، حيتها بهزة من راسها وصعدت الى غرفتها . كانت قد صممت على قتل الحشرة والتخلص منها ... ستلقي بها من النافذة ، لماذا لا ؟ لا بل ستقتلها ...

عائدة الى رفاقها ... ستبدأ معهم من جديد ، أن البعد عنهم لم يمنحها الراحة ، وهي ما زالت تقاتل لكي تعيش .

عندما فتحت باب الغرفة وجدت الصمت يسيطر على الاشياء كلها ... لا صوت ... لا حشرة ... لا تساؤلات على الجدران . اقتربت من الجدار ـ الوطن ونظرت خلف المدفأة باحثة بعينيها عن حشرتها ... لم تجدها ، لقد اختفت دون أن تترك عنوانا . ربما سبقتها الى «عينتاب». ستلتقيان هناك من جديد .

بحثت عن جواز سفرها الحقيقي ولما وجدته تصفحت اوراقه ، ثم ألقت به في حقيبة يدها . نظرت حولها في زوايا الغرفة : ما تزال صورة فرانك على الجدار القريب من سريرها ، ورائحة جسده على ثيابها وجلدها ، لكنها ستغادر هذه المرة الارض التي جمعتهما معا ... الارض التي احتملت ثقل جسديهما وفرحهما ... ستغادر باريس ، ولا بد أن تتذكرها هناك بشيء من الحزن .

(لم يبق لك شيء هنا ، الزوايا معتمة « وعينتاب » جمرة تحترق في صدر الشاطىء ، الرحيل اليها هو العودة الى رحم أمك ... الرحيل اليها هو العودة الى ثورتك الاولى التي حلمت بها) .

اغلقت الباب وهبطت السلم الخشبي . كان وقع اقدامها على الخشب العتيق يعيد اليها حزن ليالي الوحدة التي قضتها باحثة عن مثلها وعن فرانك ... عن زواجها واسمها الحقيقي . ودعت شارع « هنري رينيو » نظرت الى البناء العتيق الذي يحمل رقم (٦) وتذكرت انها نسيت ان تقول لانيتا وميراي انها راحلة . ولكن لماذا ؟ ستسأل أنيتا غدا ، وستفتقد ميراي اغلاق باب المدخل في الرابعة صباحا .. ستتحدثان عنها دقائق ، ويموت كل شيء .

الى المطار اتجهت وحيدة .

(ما من احد يودعك هنا . ولكن رفاقا كثيرين ينتظرونك هناك) .

هبطت الطائرة في مطار اورلي ... تلك الطائرة القادمة

من بعيد ، من بـــلاد حارة تصفع وجـــه الصقيع الذي يلف المدينة ...

ها قد عدت الى اوروبا يا فرانك تحمل في راسك تلك الصور التي ما فارقتك يوما ولكنها ابتعدت عنك ولم يعد بالامكان أعادة ترتيبها في مخيلتك . قالوا لك وهم يودعونك في المطـــار : « البلاد بلادك ، لن ننسى أبداً الايام التـــي قضيتها سجينا لأجلنا » .

وكانوا ينسون بالطبع انك قد تغيرت ... ببســـاطة تغيرت وعدت من جديد الى باريسك المتعبة العجوز ، تقفز فوق حبال السياسة وتستنجد بفرنسيتك تلك التي مقتها وهربت منها الى القارة البعيدة . هززت راسك بالايجـــاب ولوحت بيدك « لفاسنتو » رفيقة الايام الصعبة ومضيت . كان صوتها يلاحقك في الايام الاخيرة التي قضيتها هناك ... وجهها المتعب المرهق بليال ما انت الذي صنعتها ، وبهموم لا تدري ما هي . كانت عيناها ترتسمان على مياه الخليج الدافئة فتبدل الوانه وتعيده الى رحـــم الايام الماضية ، ومن بعيد تبدو سفينة صغيرة متواضعة تحمل رجالا جاءوا لكي يبدلوا وجه التاريخ . لاحقتك عيناها .

في الايام الاخيرة ، رايتها في مدخل بيت الضيافة الذي أعد لك ... عند تقاطع شوارع المدينة المؤدي الى قصـــر الدكتاتور السابق ... في الساحة التي شهدت فيما بعـــد انتصار ثورة شاركت من بعيد في صنعها ، وساءك كثيراً ان لا تكون الى جانبك ... عندما هتفت لها لتقول : انك تحبها سمعت الثلج في صوتها فارتعشت دماؤك وانت تحاول ان تستمد من شمس البلاد الاستوائية قليلا من الدفء .

« أفتقدك فرانك ولا اشتاق اليك » .

عندما تفتقد المرأة رجلا فلأنها تعودته ، وعندما تشتاق اليه فلأنها أحبته . ونادته تلك القادمة من الشرق ... تلك الحمامة المهاجرة ، لم تأت الى باريس صدفة ، ولا شدتها الاحجار العتيقة لقصر تويلري ... لقد تساءلت في سرك كثيرا ماذا تفعل امرأة مثلها هنا ... قالت اشياء واشياء . حدثتك عن ابيها ، عن امها ... عن البحر ، عن زوجها ، لكنها ظلت تحفظ في داخلها سرا لم تستطع أن تعرف أبعاده . لا بد وانها تنتظرك هناك عند الحاجز .. لا بد وانها ستكون فرصة لعودتك ... لا بد وان تزرع نفسها في صدرك وتقول لك : « لقد افتقدتك » .. يكفي ان تقول هذا وبعد ذلك فان الايام وحدها كفيلة بتغيير الاشياء .

عبر رصيف المطار متجها الى الحاجز . لفحته ريح باردة ، فحاول أن يعقد ازرار معطفه . وضع حقيبته على الرصيف وشد أليه كنزته الصوفية . ثم اخذ الحقيبة ودخل الممرات المؤدية الى صالة الاستقبال . حدق بوجوه المستقبلين المتجمعين على مدخل الحاجز ... بحث عن راسهـــا بين الرؤوس ... عن الليل الطويل في شعرها ... عن النهار الذي كان يغتسل بعينيها وينسحب ناسيا نفسه . ولكن لا اثر لعالمها .. لا بد وانها قد تاخرت قليلا عن الموعد .. او ربما اخطأت ساعة الوصول . لقد ارسل برقيته منـذ يومين ولا بد انها وصلت . تقدم من شرطة المطــار وابرز جواز سفره ، وضع الموظف المسؤول الخاتم فوقه وانفسح له الطريق ليعبر ... تقدم قليلا وظل يحدق في وجــــوه المسافرين والمستقبلين والمــودعين ... ولكن نادية ليست هنا . انها لم تصل .. لم تصل . شعر بغصة في الحلق ومر به خاطر سريع : هل تكون قد قررت الامتناع عن لقائه ؟ ولكن

لماذا ؟ صحيح انها كانت غريبة وهي ترد عليه بالهاتف يوم اتصل بها ، ولكن ذلك لا يعني انها قد قررت قطع علاقتها به. صعد الى مقهى المطار في الطابق الثاني حيث تعودا الجلوس قبل السفر ، وعند اللقاء ... بحث في الزوايا الاربع . حدق بوجوه الرجال والنساء ، ولكن نادية لم تكن هناك .

هبط السلالم مسرعا وانتظر امام لوحة الاعلانات عن ساعات الرحيل والوصول ... انتظـر نصف ساعة .. ساعة .. ثم فقد الامل بان تاتي ، فغادر صالات المطار حيث القى نفسه في أول سيارة اجرة وطلب من السائق الاتجاه الى بيتهـا .

(قبل سفرك كانت نادية تعيش مأساة لا ترويها ولا تتكلم عنها ، كانت كلما ضجت الاسئلـة في رأسها تطوي ذراعيها الى صدرها وتنتظرك في ساحة دوفين ، على الشاليه الذي يصل قصر العدالة بجسر السان ميشيل . كانت تريد ان تقول لك شيئا ، ولكنها كانت دائما تبدد كل شيء في العتمة وتبقى صامتة) .

تقترب السيارة من مدخل باريس ، يطلب الى السائق ان يأخذ مدخل « دوجنتي » حيث ينعطف باتجاه « بولفار جوردان » . استمر السائق دون ان يبدو عليه سمع توجيهات فرانك ثم التفت اليه متأففا وهو يقول :

ـ سيدي .. أن الحياة في اوربا لا تطاق ، انظـر زحمـة السير في هذه الساعة من النهـار ! انها تمـزق الاعصـاب !

(وتذكرت انك آت من بلاد ما زال الجوع يمزقها ، وتذكرت ايضا أن نادية قد قالت لك ذات يوم : « تبقى في فرنسا ليستهلك العامل قطعتي بفتيك بدلا عن واحدة . ونحن

نقاتل كي نعيش . أن مشاكل اوربا مشاكل اخرى ، الازمة هنا اصبحت مختلفة عنها في البلاد التي اتيت منها . حل مشكلة ثمانية ملايين سيارة خاصة في باريس ان شئت) .

توقفت السيارة أمام بيت نادية وهبط فرانك . نقد السائق اجرته وجرى مسرعا الى الطابق الثاني . أمام غرفتها التقط انفاسه وقرع الباب لكن ليس من يجيب .. انه يوم السبت ونادية ليست في عملها . انه يعرفها جيدا ، فهي تسكن الجدران الاربعة منذ فترة . اتكون مريضة ؟. قرع بشدة اكثر وانتظر . خرجت جارتها من الغرفة المقابلة ولما عرفته ابتسمت قليلا وقالت له :

ــ لا تتعب نفسك يا سيد فرانك ، لقد سافرت نادية امس . وقد اوصتنا ان نقوم بتسليم غرفتها الى المالك والمفتاح معي ان شئت . لا شك في انها تركت لك بعض الكتب ، هل ترغب بأخذها ؟

أسند راسه الى الجدار واستدار عائدا الى السلم دون ان يجيبها . هبط الدرجات القليلة ، ولما وجد نفسه في ضوء النهار الذي يغسل الشارع اتجه مسرعا الى محطة تاكسي فطلب من اول سيارة ان تقوده الى بيته .

تسلق درج بيته ، وفي الفسحة المطلة على السين في الطابق الثالث توقف قليلا . هنا تعودت أن تتوقف لتلقي بنظرها الى النهر وتبتسم . هنا كانت ترفع راسها اليه وتحاول ابعاد خصلات شعرها عن وجهها وهي تقول له : « لا أستطيع أن افهمك . اقول انني عاجزة » .

فتح الباب فاستقبلته رائحة الرطوبة .. رائحة بيت لم تطأه الاقدام منذ رحيله . وقعت عيناه على الصالة بكل شيء فيها : ثيابه على المقاعد ، قميص نومها معلق في

المر ... ثوب الحمام الازرق الذي كانت تضعه علـى جسدها ... رائحتها مختلطة برائحة الاشياء كلها ، ومكتبه حيث كانت تقضي ساعات تكتب وتكتب اشياء لم يكن يعرف ما هي . القى بالحقيبة جانبا واتجه الى مكتبه حيث الرسائل التي حملتها الخادمة اثناء غيابه ... تصفح الرســائل فوقعت عيناه على ظرف كبير مكتوب عليه بخطها . قرأ :

« الى فرانسـك . »

فض الخطاب بسرعة فوقعت عيناه على الجملة الاولى.

« اعرف انه زمن الحرب » .

جلس على كرسيه وغرق في الرسالة ... غرق في الكلمات. كان العرق البارد يتصبب من جبينه وعتمة الليل تلف كل شيء . اضاء النور واستمر في القراءة . اشتعلت في راسه الايام الماضية ووجد نفسه من جديد في عوالم التناقض المطلق الذي عاشه فترة السجن . ماذا كانت تريد منه ؟ ولماذا مرت في حياته ؟ الى اي مدى كانت تصارع ايامهـا وكيف لم يفهم ؟

لقد شك كثيراً ان تكون امراة عادية ... طالبة . هذا ما قالته له وكاد ان يصدق . تصور انها احدى تلك الفتيات اللواتي لا يستطعن الاستمرار في العالم الثـالث لأن حدود وعيهن يتخطى الواقع فيأتين الى اوربا باحثات عن الثقافة والتجـربة .

والآن رحلت ، وهو ما زال مكبلا بحدود آدميته ... بشروط حياته الجديدة التي يعيشها منذ عاد من القـارة الاخرى . لم يعد بامكانه ان يقطع الحبال التي تشده الى الواقع . ابدا اسمه هنا ... شهرته ... وطنه ... وفوق

ذلك وجه فلورنس الذي يحب والذي ينتظره ابدا .

آثار الجرح في كتفها ... آثار الرصاصة .

يومذاك ابتسمت وهي تقول له آنها آثار عملية جراحية قديمة . وشك في آلامر ، لكنه لم يتخيل قط ان تكون هي تلك الفتاة التي لمح وجهها في سجنه على صفحات الصحف التي كانت تصــله ... تلك التـــي قادت عمليات تحويل الطائرات الثلاث وسقطت سجينة ذات يوم .

كيف استطاعت ان تخفي ذلك عنه ؟.

هل كانت تحاول ان تنسى كما تقول ، وهل نسيت ؟.

« عينتاب » تحترق يا فرانك ، واشعر أنها ستبقى حزيرانية وانني هنا تحولت الى قلعة سأم ... الى نسيان . لست ادري الآن الى اين يتجه رفاقي وكيف ؟ لكنني اعرف ان المعركة لم تعد بيني وبينهم ... لم تعد المعركة ما نتصور للمستقبل ، فهي قائمة الآن وعلي ان اكون هناك . عــلى خطأ .. على صواب ... علي ان اكون في الساحة ، لقد كتب علينا آن لا نحيا حياة عادية . اخترنا وانتهى الامر » .

اعاد قراءة السطور وتنفس بصعوبة ... شعر ان قدميه مكبلتان في آلارض ، وذراعيه مشدودتان الى السماء .. ورأسه لم يعد يحتمل .

« خفت ان تحولني الى مادة جديدة لرواياتك .. خفت ان تكتب عنــي : عاشت هنا وكانت بعيدة عن ســاحة المعركة . انت ترفض آن تأتي الينا . بلادك بحاجة اليك . هذا ما قلته لي ذات يوم :ابق هنا اما انا فانني اشعر ان بلادي بحاجة لي والسؤال يرعبني : من انا بالنسبة لكم ومن انتم بالنسبة لي » .

(هذه الاسئلة التي لاحقتــك يا فرانك في بلد كانت

الثورة فيها على آلابواب ضرورية كالماء والهواء ... في بلد اصبحت فيه السجون مضافات مفتوحة والـدم يغسل كل الشوارع . أقول لك لم اعد اعتقد ان هناك ثورة شاملة ستمحو كل المظالم .. كل النماذج التي قدمت حتى الآن انتهت الى نماذج مذهلة بدكتاتورياتها . وأنا لا اذهب لابحث عن سعادة الانسان ولكنني ارحل لأدافع عن حياته . انا لا اقاتل لأغير نمط حياته ولكنني أقاتل لاعيد له ارضه) .

وضع الرسالة على المكتب ووقف : اخذ يذرع الغرفة بخطواته وينتظر خلاصا ما .

(لقد كنت بعيدا يا فرانك عن عالمنا ، كنا بحاجة لشهادتك من أجل من ذهب الى الارض المحتلة ولم يعد ، ومنعت عنا شهادتك ... كما اغلقت ابوابك . فرانك ! لا استطيع ان اكون لك ، فأنا اغسل وجهي وآكل وانام واستيقظ واعمل وامارس جسدي بانتظار ان أعود اليه) .

كنت محطة من غير شك ؟

قال هذا لنفسه وهو يتجه الى غرفة النوم ، حيث مزقت نادية على الجدار لوحة « سيزر » وصورته . لقد احرقته حاضرا ... لقد اعدمته حاضرا وعاشت معه ماضيا ... لقد بحثت في جلده عن ثورة تخيلتها ، لكنها لم تجدها . من قال لها ان هناك ثورة ؟.. من قال لها انه رحل باحثا عن الثورة ولم يرحل باحثا عن ذاته ؟.

استلقى على السرير ، وظل يحدق في شعاع النور الذي يخترق الباب الفاصل ما بين المكتب وحجرة النوم . حاول ان يقول شيئا ... حاول ان يصرخ في تلك اللحظة : « نادية ! لست نبيا . انا جبان وضعيف ككل البشر وقـد كنت أخاف » .

تحترق اللحظات وضباب الحقيقة يغلف كل شيء . وهو قد اشعل أحلامه مرة واحدة في صدر الصمت . تلك المـرأة القادمة من النار ... من الشرق حيـث احـرقت مراكبها وجاءت تبحث عن صمتها : لا الصمـت حالفها ولا صراخها اخترق الجدران .

ظل يحدق الى سقف الغرفة ويتذكر وجهها، يتذكر تلك العينين المشتعلتين بأمل ما ، وذلك الوجه الذي كان يحمل في تعابيره غربة عميقة : يا نادية ، يا غربتنا معا ، من قال لك انني ما زلت ابحث عن الثورة ؟ .

ها هو في زنزانته مرة اخرى ، في ذلك البلد الحار ، في السجن الذي قضى فيه اياما طويلة . يدخل الكاهن اليه قبل لحظات الاعدام وقد حلق شعره والبس ثيابا بيضاء فضفاضة كتب عليها كل الجرائم التي ارتكبها : جرائم عشر .

الاولى : سرقته لسماء ما لكي يجعلها تلتمع في العينين.

الثانية : سرقته للمطر لكي يغسل به القبور .

الثالثة : سرقته للثلج لكي يرسم به نهرا .

الرابعة : سرقته للمسافات لكي يصنع منها بحارا .

الخامسة : سرقته بطون النساء لكـي يجعـل الحياة مستمـرة .

السادسة : سرقته الدم ليلون به المطر .

السابعة : حديثه عن البنادق والرجال الذين يرغبون في الموت وفي الحياة .

الثامنة : عشقه لهذا العالم .

التاسعة : حبه للوريس .

العاشرة :

مكان الجريمة العاشرة ما زال فارغا . لم يفطنوا اذن اليها . قال ذلك لنفسه وهو ينظر الى الكاهن الذي اتشح بشفقة مصطنعة . كاد أن يقول له : لقد نسيتم أن تكتبوا جريمة حبي لامرأة ، النجمة على جبينها ووطنها في عينيها . تلك القادمة من الشرق ... الباحثة في مقابرنا عن حل لمشاكلها ومشاكل وطنها . صفع الغرب ابوابه في وجهها وابواب بلادها مقفلة . جريمة شوقي لراسها في تلك اللحظة . الرأس الذي اعادني لأيامي الاولى .

وجه الكاهن أمامه أخافه ... كاد ان يضربه على قفاه مازحا ... ان يقول له : لا حاجة بي للآباء ولا للاعترافات. جرائمي على صدري والجريمة التي لم تكتب بعد ستكون من أكثر الاسباب التي تدفع لقتلي .

قال له الراهب : استغفر الله . والتجىء اليه ، لم يبق لك سواه . ستلقاه بعد دقائق ، وعليك ان تقبل موتك بشجاعة . أعترف ماذا فعلت . انني اب لك ... واسطة بينك وبين الرب .

صرخ فرانك في وجهه بحدة : « لا حاجة لي بك . امض عني ! انا لا اعرف الهة ولا اباء . سأقبل الموت ولو خيرت لقاتلت ضده . »

خرج الكاهن من غرفته وعبر الممر المعتم الطويل. مشى، لا صوت للسلاسل التي تكبل يديه ... السلاسل صامتة كأنها تحولت الى دموع شفافة . اقتربت جدران الزنزانة اكثر كادت تطبق عليه . تذكر الفضاء الشاسع المحيط بالمدن الغابية . تذكر شجرات الموز في الخارج وهي تلقي بأيديها الى الغابات المجاورة ... صوت الحيوانات وهي تصرخ

بفرح . حاول ان يقطع سلاسله لكن السلاسـل متينة ولا قدرة له على التحرر منها . سمع قرعا خفيفا علـى بـاب الزنزانة ... انفتح الباب ولفحته رائحة حشائش برية مضى زمن لم يشمها .

دخلت نادية مكللة بتاج من النار . عيناها بحيرة ليلية والملح ليس ملحا على بحـيرات الشـرق . شعرها اسود كالليل الذي يتسلل اليه من الكوة في اعلى الجدار ولا نجـوم في ليالي السجون . ثيابها بيضاء بيضاء كعروس خارجة من البحر ، جميلة فاتنة .. تنتظر ان يتقدم اليها فيطبع علـى جبينها قبلة لقاء في منافي بعيدة عن الوطن .

الجريمة العاشرة قادمة اليه في زنزانته ... فرحة ... حزينة . ما الذي جاء بها ؟ في ثياب الزفاف ... ثياب الاتحاد بدمه .. ثياب الرغبة في الخلق بالولادة بالاستمرار . ها هي ... مسحة الحزن لا تفارقها .. كم انت عاصفة ايتها المرأة ؟ حاول ان يقترب منها فاكتشف بقهر ان ساقيه مقيدتان ايضا ، مشدودتان الى الجدار البحري ... حاول ان يفتح ذراعيه لاستقبالها ... حاول أن يصرخ فرحا ... عاصفة ما في الخارج كانت تقتلع المدن... يا ذل آدميتنا! يا خوفنا من اعماقنا الميتة !

ــ نادية لم اعتـرف ، لم اقـل للكاهـن انك الجريمة العاشرة. لقد انتظرتك في الليالي الطويلة بين جدران الزنزانة. وعندما لم تكن يداي مقيدتين رسمت وجهك على الجدران ، على ثيابي ، على الارض ، على المطر ، على الليل القادم من الكـوة . لقد اكتشف الحرس وجهك المرسوم وسرقوه لكي يقتلوا الحب بشكل افضل . سرقوه كالحقيقة ليجعلوا منها دخانا . سرقوه كعصافير شتائية ليوقظـوا الشجر . لكي يسلوا الليل ... لكي يعيشوا موتهم بشكل افضل .

اوه نادية ! لقد جعلت الموت ينتظر ... لقد كنت عارية في مصيرك .

حاول ان يقول لها : انه جائع وبحاجة الى صدر امه . بشوق لشجرات الموت . لكن صوته خانه وارتد اليه . شعر بغصة .. بغضب .. بألم .. برعب . بتمرد . لكن لا شيء يساعده على التعبير عن كل هذه الموجات المنيفة التي تسكنه . ونادية ما تزال في مدخل الزنزانة .. والعاصفة في الخارج . الوجه نقي ولا اثار للالم فيه ، ملوح بشمس الشرق ..

ــ تكلمي ايتها القادمة الي .

لم تقل شيئا ، لم تحرك راسها . ابتسامة واحدة لا احد يدري فحواها ... ابتسامة تغسل صقيع الزنزانة وتنطلق اليه فتمسح أثار التعذيب عن جسده .. تثير لديه الرغبة بالعواء كالذئاب في الغابة البعيدة .

استجمع قوته وصرخ فسمع صدى صوته وفتح عينيه في سريره . استيقظ .. نظر الى سقف الغرفة ... حوله... ها هي شقته في باريس . كتبه هناك في الزاوية تنحب بصمت . الالة الكاتبة صامتة بلهاء .. الراديو . صورة ابنته .. ولوحة « سيزر » على الارض . حرك يديه وقدميه ... رفعهن في الهواء .. لا سلاسل .. لا قيود .. تحسس جسده . وقفت كفه على صدره وبطنه .. لا وشاح ابيض ولا جرائم .

وقف يرمي بأشعة الشمس المتسللة عبر العلية . سمع صوته العميق ، صوت كل الايام البعيدة .

« احقا ترغب في الرحيل مرة اخرى ؟ اربعة اعوام وانت تنتظر لحظة اعدامك ، كلما فتح الباب ظننت انهم

جاءوا ليقودوك الى الموت . لقد اتـاك الكاهن ذات يـوم ليطلب اليك الاعتراف بذنوبك . أردت أن تقول له : انك كنت مخطئا ، لكنك صفعته وادرت وجهك للجدار ، ظللت اياما طويلة دون طعام . لم تكلّم احدا ولم تستند للخلف . عينـاك في الجدار منتظرا لحظة اعدامك .

ثلاثة اعوام قبل السجن وانت تحمل الرسائل من مدينة لاخرى في بقاع القارة والشمس تكوي جلدك وباريس تأتيك عبر الاحلام ، وغرفتك في البيت الواسع تنتظـر ان تعود ، والاصدقاء يسألون اين انت ؟

وميراي ، الرفيقة التي احببت . كانت تلاقيك علـى حدود المدن بوجهها الاسمر وجدائلها الطويلة تحمل لك اخر الكتب التي تقيأها مثقفون تافهون في بلادك ليقتلوا عجزهم .

لقد غربت وحيدا ، وعند اعدائك لم يكن لك من صديق الا انت . تحملت كثيرا . وفي الخارج تحرك رفاقه على مدى العالم ليخرجوا ثورا مثلك من زريبته . واخيرا حملك تغيير وجوه بوجوه الى الحرية . مروا بك في عتمة الليل عبر الطرق المظللة بالفقر والجوع ، وفي اول طائرة متجهة الى وطنك الام ، القوا بك كبضائع محرمة . عندما وصلت أقدامك ارض فرنسا قلت لنفسك لن افارقها بعد اليوم .

وصلت .. دخلت في عربة الزمـن والراحة . تزوجت ميراي بجدائلها الطويلة وأنجبت طفلـة . حدقـت بعينيها الزرقاوين وعشقت السماء فيهما . ها انت تعيش ترفك ايها الثور !... ترتعش اذا سمعت صوت اغلاق نافذة . تنتفض كالطيور الذبيحة اذا ضربت الشمس راسك ، رغم علمك انها تختلف عن الشمس هناك . رفاقك يا غبي ماتوا ، او تفرقوا في هذا العالم ، لقد وجدت نفسك غـريبا فـي القارة

البعيدة . لقد صنعوا منك اسطورة كان ضحيتها امثال نادية ورفاقها . اين تهرب من ماضيك ؟ لقد عاهدت نفسك ان لا تكون في مواقع الخطر من جديد .. ان تعيش براحة .. ان تستنشق حرية اوربا .. أن تقرأ شعر اراغون ، ان تكتب روايات وكتبا !

ولكـن ..

جاءتك مثل الغيمـة : مثـل العاصفة قوية وحادة وواضحة .. مزقت صمتك وتخاذلك ونسيانـك ، وذكرتك ببقع تحترق في هذا العالم . وانت تنعم بسلام اوربا .

خفت ان تقول لها انك انتهيت وانك مشدود الى وجه لوريس ، وساحة الكونكورد وبيتك على الرصيف المحايد من كان صوتها يغسل عنك الريش الباطل الذي كسوت به جلدك السمين . خفت ان تقول لها انك لست ذلك الذي تخيلته . واحببتها امرأة فرفضتك امرأة ، رفضتـك رجلا ، تركتك في كسل راحتك وهربت ... مضت كنمرة تبحث عن بقع الدم على جبين بلادها .. لكنها ردتك الى ماضيك .

ان الثورة لا ارض لها .

تذكر ! هذا ما قالته لك وانت تحاول أن تقنعها بموقفك الحالي .

« كل ثائر في هذا الكون مسؤول عن حياة رفاق له في البقاع المتفرقة من العالم » .

.

نهض فرانك من مقعده واتجه الى الحمام مستنجدا بالمياه الحارة ، علها تخلصه من التفكير ، علها تبعد عن راسه الرغبة المجنونة في العودة الى ارض المعارك المشتعلة . علها تمحو من عينيه صورة نادية وهـي مستلقيـة علـى وجهها واثار

الرصاصة تزين كتفها كوسام . ولكن المياه الحارة لم تزد تلك الصوت والافكار الا اشتعالا في دمه وراسه . وبدت له الاشياء اكثر تعقيدا من قبل . عليه ان يتخذ القرار الذي سيخلصه من تلك الازدواجية التي يعيشها .

ولوريس ؟

تساءل وهو يجفف حبات الماء عن صدره : هل ستعيش يتيمة ؟ . من قال انها ستعيش يتيمة ؟

حدق ببحار « سيزر » ، فرأى أشرعة جديدة تنبت من اطراف مجموعة غاضبة تجتاح محيطا ما في تلك اللحظة . ارتدى ثيابه مسرعا وهبط السلم الخشبي باتجاه مدينته التي احب والتي تخرج من عينيه بصمتها وحيوانيتها احيانا .

قطع الساحة متجها الى اليمين حيث رصيف السين والجسر التاسع . « سان جرمان دوبريه » ورصيف « دوزيرفيفر » على الطرفين كنشيد غجر اختاروا الجبال موطنا لهم . مرت رعشة الصباح الباكر على جبينه وطار شعره عبر الرياح الاربع التي تتضارب في قلب مدينة تعيسة وبائسة كباريس . صعد سيارته واتجه الى مقر الحزب الذي ينتمي اليه . ماذا سيقول لهم هذه المرة ؟

« لقد انتهى كل شيء ، قررت الرحيل من جديد » .

وسينظرون اليه بدهشة . ففرنسا على ابواب الانتخابات الجديدة التي يمكن لها ان تحمل اليسار الى الحكم . سيقولون من جديد : انه هرب من مواجهة واقع بلاده ليذهب الى بلاد اخرى . سيقولون : لقد تعود ان لا يحمل وطنا أو اسما او هوية .

لقد تعود ان يكون المستشار والغريب . سيقولون...

ولكن ليقولوا ما شاءوا ، فرنسا ليست بحاجة لأمثاله :
فرنسا ستحقق مكاسبها سواء تسلم الحكم اليمين او
اليسار . لقد اعطاها التاريخ فرصتها واتمت ثورتها :
وها هي تعيش الآن بانتظار تحقيق رفاهية اكثر ..
المؤسسات في فرنسا ستكون اكثر ديمقراطية ، والتغيير
الثوري سيأتي نتيجة للتاريخ الطويل لبلد حقق ثورته
البرجوازية : اما هناك ، حيث ذهبت نادية ، فالموت على
ابواب الايام .. يقرع كل يوم بيده الدامية ليخطف البشر .

عند مقهى « سان كلو » كانت يداه قد تراخثا على
مقود السيارة . ولم يعد بامكانه الاستمرار . انتحى جانبا
شارع « سان جرمان » وأوقف سيارته . نظر الى باريس
الصباحية تلك . أنها لم تتغير منذ زمن ، منذ تركها راحلا
الى بلاد أخرى ... الساعات الاولى من صباح احد ككل
الاصباح ، ها هو بائع الصحف في الزاوية حيث كان يشتري
جريدته كل يوم ، وما تزال الكنيسة مكانها ، وحتى بائع
الصور ...

« كم أنت باريس ، هكذا تخيلتك في المنفى ، كانت تقول
لي باستمرار انك الخوف ... الخوف من ان تدخلي بشرا
مثلنا في دائرة الحياة اليومية العادية ، ثم تقدمي لهم في
المساء وجهك الذي يخافه الغريب لانه يمتصه ببطء اشبه
بالساعات الاولى من الحياة » .

هبط من سيارته متجها الى مقهى « سان كلو » .
عندما اجتاز الباب لفحته حرارة الصالة المليئة بالوجوه التي
لا تعبر عن شيء ... انها السأم والعاصفة ... ولكن
العاصفة تموت . النسر الذي يفرد جناحيه لاستقبالها ينام

في ذلك الصباح من نهاية الاسبوع عام ١٩٧٧ . عرفت وجه الخادم الذي تعود رؤيته كل صباح . الرجل البدين خلف الآلة الحاسبة . العجوز التي ترتاد هذا المكان منذ عشرة اعــوام .

« وانت كنت تأتي هنا وحيدا ، وهج عينيك لا يستطيع ان يقابل صقيع الاحزاب السياسية . العالم كله ينـــام تحت ذاكرتك ، تحاول أن تجبر الموت على ان يفصل على مقاسك. حيويتك ، تساؤلاتك تسكنك من الفجر الى الآخر . في الساعة الثامنة في غرفة المكتبة من شارع « أولم » ، تأخذ فطورك الصباحي في المقهى المقابل قبل ان تسكنك الاسئلة . فصول الجحيم قبل الرحيل ... فصول الجحيم بعد الرحيل ... فصول الجحيم بعد العودة ... فصول الجحيم في جســد نادية الذي يطبعه العذاب . اغتصاب الجســـد في اقبية السجون . وامراة واحدة كانت تعشقك ، وامراة واحدة كانت تهجرك ، هي الثورة التي تبحث عنها في وطنك ولا تجدها . اطمئني يا سيدتي لن اهجرك . كنت تخاف قليلا . وكانت امك تنظر الى عينيك . لكنك كنت بحاجة لان تترجم جسدك واسئلتك ، وكنت واثقا من تلك الحاجة . السقف امام عينيك وظهرك يفترش خشب غرفتك في البيت الواسع . قميصك الازرق يلتصق بجسدك وانت تعاني عذاب وحدتك الفكـرية وغربتك . ويدك تعبث دائما بشعرك وتنطلق من حنجـرتك اصوات الغربة . انتهت اللعبة او بدات ، لا بد انك ستعود من جديد . السيــد « فـــلان » ضـــد الثـــورة لان الظروف الموضوعية لم تحن بعد . قفه . هناك تغير في الطرقات من فضلك . الكثير من السهولة يا عزيزي الماركسي الغربي . في هذه القصة او تلك ، عليك ان تتخذ قرارك وحيدا ما من

احد يساعدك على اتخاذه. لا تقصد الاباء. كلهم ذوو بطون منتفخة ويخطئون . وانت اخطأت ايضا . اكتمل الملف . قف . نقطة على السطر . كنت تعتقد ان الثورة لن تكون في بلادك . وكنت مقتنعا وهي ما زالت مستحيلة قف . من « اجل » و « ضد » وما هو اكثر وعيا لطفل اشقر فارغ القامة . اقتراب عام ١٩٦٨ يجعلك تنتظر . ايها الثوري الشقي . أيها المطلق من الثورة والمطلق لها . الغرف المرتفعة والمحنية السقوف ، وجه رينيه الملون بافريقيا وهو يشرح لك استحالة استمرارك أيضا هناك . ومرة اخرى ذهبت لابائك الشرعيين ، لحزبك . صعدت الطوابق التسعة للجريدة ، واخرجت اوراقك امام صانعي الحقد والعدالة والتاريخ . كان الطريق يبدو لك دون نهاية ، والواقع غير موافق عليه ، كان عليك ان تكسر أجنحتك وتعيد صنعها . وبعد ذلك الغابات والرفيق الذي طعن في ليلة حارة بين الصلاة والنضال. كانت عيناه دون شك تنظران باتجاه سجنك، وكنت تراه فيك . تسميه . تبحث عن وجهه في ظلام وحدتك . تسال حياته . أرض صليبه . اصدقاءه . تلاحق الاودية التي لعبها بجسده ورأسه وروحه ، الاودية الروحية .

— ميراي تولي لي اذا كان حقا قد قتل . . .

خنقت ميراي دموعها من السقوط وهي ترد اليك وجه الماضي في زيارتها الاولى بعد صدور الحكم عليك .

— لقد صلب ، جسده غرز بالاف الابر .

كنت خجلا من الملك الشخصي وحاولت ان تخفيه امام حراسك وجلاديك . في لحظات الوحدة تلك ، وعندما قنعت باستحالة أن يكون الثائر في غير ارضه ، وبشيء من التآمر مع الذات ، باستحالة الثورة ايضا ، نزعت الشراشف البيضاء

عن سريرك، وحاولت ان تصنع منها حبلا . اسئلة ... اشارات استفهام .

شعر ضائع لاراغون لم تحدد هويته جاءك مع الغروب الذي كان يتسلل اليك من الكوة في اعلى الجدار . هاجمتك الرغبة في الحياة والرغبة في الموت . الرغبة في الحرية لرجال متفرقين في هذا العالم . وهكذا ضعت بسهولة في غابات ماضيك، رسمت على الاوراق بقع حنان قليلة لشاب اشقر جاء من بلاد بعيدة .. بقعا مضيئة كشمع في معبد . في الليل كنت تستيقظ وترى خطواتك عبر زنزانة طولها ثلاثة امتار وعرضها متران . حاولت ان تكتب في الصباح الباكر ... حاولت ان تحدد لحظة النزع الاخيرة . ما استطعت ، وهكذا وزعتها على الماضي والحاضر . كنت تكتب محاولا ان تخترق جدران سجنك ، معتقداً ان النهار آت . ذلك النهار المجهول الذي يدفعك للتساؤل احيانا اذا كان موجودا في افق الزمن .

عندما كان الليل الاسود يمد يده على الاشياء والبشر وحراسك وجلاديك على شجرة فلاريا روزا التي تبدو من الكوة حزينة ومدببة الاغصان ، كنت جثة تحيا في تلك الارض ... تلد تتزوج ابناءها . اللون الاسود الغامق المعقود على جبين الاشياء . كنت تتذكر باريس وتغرق في الضوء الذي ترسله ساحة دوفين الى العالم ... أوه من تلك الصباحات المضيئة . عندما كانوا يمنعونك من اطفاء الضوء واسدال الستائر والحلم . عندما كانوا يجبرونك على النظر الى المرآة حيث كانت ترتسم قريبا من العينين لرجل في الثلاثين تجاعيد باردة تفتقد الكثير من السرية . وهكذا كنت تضعف وتتساءل اذا كنت حقا ستخرج مرة اخرى . كنت تسترجع دون ان تدري خيباتك وتحاول ان تفهم نفسك بشكل افضل . احيانا

ودون تحفظ كنت تسامح نفسك لانك تكلمت ... الجسد الذي عرف برودة الثلوج في الغرب الاوربي لم يحتمل حقا حـرارة تعذيبهم ، وقلت كل شيء وقتل صاحبك نتيجـة اعترافك . حاولت بعد ذلك ، وعبثا حاولت ، ان تحب نفسك . ابـدا لا شيء من هذا . حاولت ان تركض وحيـدا في زنزانتك . باتجاه التوبة والتفتح في طهارتها . نهاية الرعب وضعتك امام الحقيقة . وهذا لم يكن غباء . ركعت على ركبتك ونـاديت على صاحبك المقتـول :

ــ ايها المسيح العميق القلب .. انني انتهيت راكعا لك ولا ادري حقيقة ما قادني الى هنا .

كنت طفلا يعبث بالنجوم ويلحظ بعينيه اغترابها المتحد باغتراب الموت .

ــ قل ايها الرفيق المنصف ، كيف اطلقوا النار علـى راسـك ؟.

كان من الصعب عليك ان تتخيل ان ذلك الرأس الذي كان يخرجك من حجر الفلسفة العقيمة التي تلقيها في « شارع اولم » ، الراس الذي حاول ان يعيد عدالـة الاشياء وينظم الغابة ، يسقط من رصاصة ؟

ــ بماذا فكرت والجلاد يوجه اليك نيرانه ؟ بمن حلمت ؟ وهل تذكرت امراة ما في هذا العالم . الرجل المطلق ، مـاذا قلت في لحظة ملامستك الارض ؟ كنت تبتسم . هكذا قالت ميراي ومن اجلك اشعلوا اغصان الزيتون في العالم ، ولكـن ما جدوى ذلك ؟

في الليل كانت غربان قادمة من البـلاد الباردة تسكن قضبان الكوة ، وتنعب علـى زمنك . صرخت مرة تشكو ، وسقطت في راسك حواجز كثيرة . لتكن الثورة ذلك الشبح ، كنت بشوق لاشجار الدردار على جدران مقابر مهجورة ... بدائية وحمـراء ملونة بخضرة . لفظـت جملا كثيرة علـى

دفاترك ، حاولت ان ترسم بها مستقبلك . اي مستقبل لك ايها السجين ؟ ألنسيان وتعود الالم الجسدي ؟ التآلف المحبب مع التعذيب المزمن المستمر ؟ الالم السري حتى النهاية ؟ كل شيء حولك كان تائبا . تأتيك اشباح في المنفى .. اساتذتك : ماركس ، نيتشه ، هايدغر ، مملكة الظل . وهكذا امضيت سنواتك بعدهم تزرع الكلمات وتحصد زيارات متفرقة لامرأة تاتيك من بعيد في رغبة لاقتلاعك من ذلك العدم . يوم تفقدت ذراعيك وصدرك وعنقك فوجدتها في مكانها كنت سعيداً لانك موجـــود .

انت الذي كان يحاول ان ينتشر بشكل مضيء خلــف تساؤلاته الماضية . أن ما جعلك تستمر في العيش هو الرغبة في ان تكون أبا طبيعيا وواسطة بين اجدادك وجسدك . قلت هذا لرفاقك بعد أن خرجت من السجن ولم يجدوا في ذلـــك لا خيانة ولا دهشة . كل شيء قد قيل والسجناء قبلك قـــد قالوا كل شيء في هذا الاتجاه . الشفافية ، كوجه صاحبك عندما كنتما في الغابات ، والعادات المضيئة للحـــب الموافق عليه في كل ليلة من حياتكما . كل طلقة كانت خطا مستقيما باتجاه بناء الثورة والعدل الاجتماعي . ولكن ماذا بعد ذلك ؟ تحولت حياتك الى رغبة دائمة في حماية النفس . واعيا او فاقدا تلك الصحوة ، كان الزمن ينتصر في أختراقه الرغبة . ليس الغد او اليوم هـــو الموعـــد القريـــب لاصطياد الحقد واللاعدالة . بل هو التغلب على العبودية . لكنك كنت تعرف ذلك . ربما كانت القيود الحديدية تنكسر ببطء ، في « الثورة في الثورة» . وانت تدعي انك خلقت عالما جديدا . . . املا في عالم أفضل لا يموت أبداً . لا يبوح فيه سجناء باسرارهم ولا يعترفون باسماء رفاقهم خارج الجدران . تبقى أجســـادهم موشومة بالحب ابداً . وتتحول حياتهم الى عرس .

تنهد بعمق ... أخرج مفكرته اليومية . لماذا لا يكتب نشيد الانشاد الى نادية الغائبة ؟ الى الثورة التي مضت عنه؟. لماذا لا يحاول ان يكون معها الان تحت نيران « عينتاب » . ان باريس ستحاكم باريس ، بانتظار نتائج انتخاباتها . وميشيل سيهاجم فرانسوا ثم يذهبان لقضاء عطلة نهاية الاسبوع في بيتيهما الريفيين . اوليفيه سيخرج فيلما اخر عن زرقة البحر وخضرة الشجر . وميراي ستحدثه طويلا عن طبيبها النفسي الذي يبحث معها لحظة الوعي واللاوعي . كل شيء يسقط هنا . كل شيء يسقط في العبث والرفاهية ، حتى الانفاق الطويلة والمدفأة جيدا للمترو الذي يخترق باريس ، الضوء وحده منفي في ظلمة قنابل تشتعل بعيدا عن هذه الارض . والرصاص ينطلق باتجاه صدور ، وسجناء سياسيون تنزع أظافرهم وتقتلع عيونهم . لماذا لا يعاد للعالم وجه اكثر نقاء ؟.. لماذا لا يغتصب التاريخ ؟

اخذ ورقة بيضاء وكتب :

«انا عاجز عن ان اكون بينكم ، وانني امل ان اخلق يوما أكثر ضوءا على هذه الارض . اتركركم احجار جدل وترف في اسرتكم. انتصروا ان شئتم» .

طوى الورقة بهدوء واتجه الى باب المقهى . القى نظرة اخيرة على كل الوجوه التي تلازم هذا المكان منذ زمن . عندما كان يعبر الشارع تذكر أن الساعة تشير الى العاشرة من ذلك اليوم في عام ١٩٧٧ .

الصمت يغرق باريس الصباحية ويمنحها قليلا من الموت. ماذا يفعل في هذه المدينة ؟ هل سيمنحها ولادة جديدة ؟ لقد

اصبحت باريس عقيما بعد أن انجبت كثيرا من الاولاد وهي الان في سن الشيخوخة . هل هي التي قذفت حقا بسعادته الشخصية بعيداً عن ترابها ؟ سيعود اليها بعد ذلك ، ربما عندما يكون شعرها قد ابيض .

صعد سيارته وادار المحرك ثم انتظر دقائق قبل أن يحدد نقطة اتجاهه . في تلك الدقيقة وبدلا من ان ينطلق باتجاه ساحة قصر بوربون ، ادار المقود نصف دورة واخذ اتجاه مطار اورلي .

ركضت باريس الى الخلف ... الصباح يركض ايضا الى الخلف ... على طريق المطار ، حيث القرى الصغيرة المتناثرة ، كان ثمة افق ما ينبت خلف البيوت . افق بلون البحر كان رأس فرانك يستريح على كتفيه ، وعيناه باتجاه واحد : المطار . من هناك سيعبر الى العالم الذي يحترق .

الفضاء من حوله مسكون بالحان ناعمة غير مرئية .

عندما نغني زمن الكرز

مرح الطيور وهزء العندليب

سيكونون جميعا هنا

الروعة في اعينهم والجنون في رؤوسهم

مقاتلون عشاق

الشمس في قلوبهم

عندما نغني زمن الكرز

ستعيش الطيور بشكل افضل

كانت الطائرة تتجه الى « عينتاب » . ووجهه مصلوب

على الغيوم آلتي يعبرها . كيف يجدها هناك ؟ ربما ستكون قد أحترقت . عليه ان يحمل صبراً واسعا ورغبة في أن يكون الها .. رغبة تفسر له عدمية الموت . كم كان عاجزاً ! كم كان عاجزا أمامها ! دونها لا يمكن ان يعيش . انه يرسم الحياة.. يهدمها ... يبنيها . ان الحب في جسد مناضلة هو التفوق الكلي على الحرية . هو الحياة الاخيرة في عمق الازرق .

ها هو راحل اليها ، حاملا حق الرغبة المطلقة في ان يهرب اليها ، لان الاتحاد بجسد لا يحمل طلقة رصاص تعبير اخرس ليس الا ريحا . الجسـد والثـورة يلتحمـان ليكونا الواسطة الطبيعية بين الاب والابن وليس اللعبة ..

ليدع اوربا العجوز في حضن اوربا العجوز وساستها ... لن يحصدوا الا البيانات والمؤسسات . يزينون مـن جديد محطات المترو باعلانات تتحدث عن حليب نستله . وسوتيان (شانتال) ، ومياه (افيان) . هناك سيكتب رسائل طويلة منها واليها . وسيطلق رصاصات جديدة باتجاه الصمت في مدن المصانع . لتكن ثورته هذه المرة دون نهاية ، لتكن نادية الحرية المطلقة التي يتعلم في جسدها معنى الاخلاص للموت والحياة ... قبل المشيب ... وقبل العجز عليك ان تكـون الصديق الفارس الذي لا يخون .

« لقد عرفنا ، انت وانا ، الحب ، وليس الافتقاد ، لكننا لم نلتق . تذكري لقاءنا البدائي الذي استحق هذه النهايـة المكنة . تذكري رغبتنا المحترقة في أن نتحول الى شيء اشبه بالشهب » .

كانت الطائرة تقترب من الشرق ، تبدو بيوت اثينا ذات الحرائق الصغيرة كأصوات قادمة من البحر .

« لقد رويت لي تحت المطر ، على الجسر التاسع ، قصة

لقائك الاول بالحب . خفضت صوتك واحمر وجهك » .

تقترب الطائرة من الشرق ، صمت الركاب يهمس بكلمات غير مفهومة ، يتحول الصمت الى ضجيج خفيف ... يبـدو المتوسط تحت عينيه كاسطورة زرقاء تتصل بالسماء .

رفع يده الى جبينه وصلى بدء المعركة ، تذكر الكلمات الاولى التي تعلمها هناك في البلاد الحارة . ذكـرى ملتهبة لرفاق قتلوا صعدت من قلبه الى رأسه فمزقت الليل الداخلي العميق لوحدته . اذن فالاوطان بعيدة ومتفرقة ، وها هـو يقترب مـن وطـن جديـد . يسمـع ضربـات قلبه في كل الاتجاهات . تلك الضربات التي كان قد تجاهلها طويلا مـا بين ساحة « دوفين » ومقر الحزب .

هذه المرة : جناحاه لم يعودا جناحين ، انهما العالم .

مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف: ٨٢٠٩٤٢ - بيروت - لبنان

هذه الروايـــة . . .

هل تستطيع فتاة عربية مثقفة خيّبت الثورة في بلادها أملها ، ان تلتقي بها خارج وطنها ؟

إن « نادية » التي تتخلى عن التنظيم الثوري الذي تلتزم بتنفيذ قراره في خطف الطائرات ، على غير اقتناع منها ، تنفصل عن زوجها في باريس كجزء من عزمها على تحقيق ذاتها في الحرية والثورة ، وتلتقي بمفكر ثوري كبير كانت قد اتخذت من مؤلفاته انجيلاً لها . ولكنها تكتشف ، في اثناء علاقتها العنيفة ، ان هذا « الثوري » ينحرف عن منطلقاته بعد فترة قضاها في السجن . . .

وتفقد نادية توازنها الثقافي والنفسي وتبدأ « الحشرة » في قرض خارطة وطنها على الجدار ، وخارطتها الذاتية . . .

ويبقى « الوطن » في عينيها حنين الحلم للتحقّق وتزرع عودتها الى الوطن – الأصـل قلقـاً كبيراً في نفس المفكـر الثوري الأجنبي . . . فهل « يعود » هو ايضاً ؟

إن هذا العمل الأدبي يعلن بزوغ موهبة جديدة في أفق الرواية العربية الحديثة ، على صعيدي الموضوع والشكل التقني

الناشـ

